الفصل الثالث

التصـــــــــوير الفنـي

(١) التذوق .
(٢) الإيقاع .
(٣) الصورة .

obeikandl.com

تمهيد :

فهم البلاغيون القدامى المبالغة فهمًا دقيقًا ، يقوم على تذوق أبعادها ومواءمة بلاغتها مع جماليات السياق دون إقحامها في دائرة الصدق والكذب ، فالعرب إذا أرادت تعظيم مهلك رجلٍ عظيم الشأن ، رفيع المكانة .. يقولون : أظلمت الشمس له ، وكسف القمر لفقده وبكته الريح والبرق والسماء والأرض ، وهم يريدون بذلك المبالغة في وصف المصيبة التي لحقت به ، وأنها قد عمَّت وشملت ، وليس ذلك بكذب لأنهم جميعًا متواطئون عليه ، والسامع له يعرف مذهب القائل به فلا يستعجمه ، وقد جاء القرآن على هذا النسق في قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عليهمُ السماءُ والأرضُ وَمَا كانوا مُنْظَرين ﴾ (١)

وقد قدمت فيما سبق ما تبلورت فيه المبالغة صيغةً وتركيبًا ، وبقى من نماذجها ما يتعلق بالتذوق والإيقاع والتصوير ، فإن المبالغة التي يتوافر فيها الصدق الفني ما تلبث أن تبلغ الغاية في الفن والنهاية في التصور والإبداع ومن هنا فإن الصورة الفنية المنوطة بالمبالغة تقرِّب للإدراك المحدود صورة غير المحدود ، كما تستطيع أن تصوِّر المشاعر الخاصة التي يحس بها كثيرون في مواقف عاطفية بحيث لا يكون ثمة سوى المبالغة لتصوير هذه المشاعر .

ولهذا جاء هذا المبحث يعتمد على توظيف الثلاثة : التذوق ، والإيقاع ، والصورة للمبالغة ، فالأول : يتناول طبيعة التذوق في نماذج رأيت المبالغة قد برزت فيها في صورة جلية ، ورسمت أبعادها في سياق فنيّ لافت ، بحيث شكَّلت ركنًا لصيقًا في إدراك جمالها وكنه فنيتها فأردت جمعها ــ هنا ــ في مكانٍ واحدٍ قصدًا لإبراز هذا البعد البلاغي البارز كقوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ القلوبُ الحَنَاجِرَ ﴾ (٢) ولعل هذا النموذج من أبرز ما اعتمد عليه البلاغيون في إثبات هذا الفن ووجوده في كتاب الله ــ عز وجل ــ كذلك قوله تعالى : ﴿ يُحارِبُون اللَّهَ ﴾ (٣)

---

(١) الدخان/ ٢٩

(٢) الأحزاب / ١٠

(٣) المائدة / ٣٣

وقوله : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [1] ... الخ

والثاني : يشمل الإيقاع وخاصيته ، حيث يقع في بعض المواطن موقعًا يَشُدُّ المُتلقي تجاه الإحساس بالمبالغة ، ويلفته لفتًا إلى تذوقها .

وأخيرًا : الصورة بقسميها : الكلية والجزئية ، حيث تُستَمْجدُ في رسم بعض المواقف والأحداث والنماذج اللافتة ، التي تبلغ فيها الصورة مُنتهى لا تترك بعدها مسلكًا للمتلقي أن يتصوره .

---

(١) يوسف / ٣٠

obeikandl.com

١- التذوق

الـتذوق حاسـة ، يصدر عنها وينبعث انبساط النفس وأريحية يجدها المتلقي ساعة النظر في الأثر الأدبي ، هذه الحاسة تسهم في إثارتها وتفاعلها أدوات فنـية عديدة لا سيما في فنية المبالغة كالصيغة والسياق الفني بما فيه مـن حـركة وإيقاع ، ووصف وحوار وبما يعتـوره من حسٍّ ، وفكرٍ ، ووجدان .

التذوق الفني له دور '' مؤثر '' ، وفعَّال في مجال التحليل الأدبي ، فهو العنصـر الذاتـي الذي يتردد في عملية التحليل ، بالرغم من التزام الباحث بمـنهج له خصائص موضوعية ، تميِّزه عن غيره ، ويمكن وصف التذوق بأنـه { الحكـم علـى العمل الفني بالقبول أو الرفض ، بعد فهمه ، وتقمُّص روحه ومعايشته } (١) .

ولا حرج من الإفادة من معطيات بعض العلوم الحديثة كعلم اللغة وعلم الأسلوب وعلم الدلالة ... الخ في تناول زوايا التذوق الفني للكشف عن فنية النصـوص الأدبية وجمالياتها ، أما ارتباط " التذوق " بالمبالغة فهو أمـر '' بيِّن ، إذ تُمثِّل المبالغة بما فيها من جنوح إلى الخيال ، وبلوغٍ بالمعنى إلى أقصى معانيه تواصلاً حميمـًا مع شفافية التذوق وروحه .

بقـي أن أشـير إلـى نقطة مهمة وهي أن تذوق العمل البشري الفني يخـتلف عن تذوق النظم الإلهي القرآني ، فالأول:نتذوقه بتحفُّز دون تحفُّظ ، نرضى عنه ، أو نغضب منه ، نقبله أو نرفضه ، مدركين أن هناك الأفضل المـرجو دائمـًا ، وأن ما رفضناه من الممكن أن يُبَدَّل أو يُغيَّر ، ويحدث ـ حينئذٍ ـ لون '' من التناسب والتلاحم بين المُبدع والمتلقي ، تُقارَع فيه الحُجة بالحُجـة ، ويـتمازج فِـيه الرأي بالرأي { أما النظم القرآني ، فنحن نتذوقه مدركـين أنه : ﴿ مِن لَّدن حَكِيمٍ خَـبِيرٍ ﴾ (٢) وأنه ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمـات اللَّهِ ﴾ (٣) وأن ذوقنـا هذا محكـوم '' بقدراتنـا الحسـية والعقلية

---

(١) مناهج في تحليل النظم القرآني ـ للدكتور منير سلطان ـ منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٩٠م /١٢

(٢) هود/ ١

(٣) يونس/١٠

والثقافية ، وإن ثمَّ من أوتي حسًا أرقّ ، وعقلاً أدقّ ، وثقافة أعمق ، وسيتذوق ما عجزنا عن تذوقه } (١) .

وفي بلاغة القرآن يُلتَمس التذوق من خلال نظمه المُعجز ، وكلما أنعمنا النظر في آياته ، تبَّدت لنا رصانة أسلوبه ، ونضرة طلاوته ، ورفاقة مائيتهِ ، مع توفيته الغرض الديني المسوق لأجله ، حيث تسهم هذه اللفتات الفنية في تجلية هذا الغرض ومن مناحي التذوق في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ القلوبُ الحَناجِرَ ﴾ (٢)

حتى قال بعض الطاعنين : كيف تبلغ القلوبُ الحلوقَ ، والقلب إن زال عن موضعه شيئًا مات صاحبه ؟ (٣) .

ومن البَدَهي جريان اللغة على الحقيقة والمجاز ــ وهو ما لم يدركه الطاعنون جهلاً ــ وإلا فما تقول في قوله تعالى : ﴿ وَمن كَانَ في هذه أعْمَى فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً ﴾ (٤) ، قال أبو السعود : { (وَبَلَغَتِ القلوبُ الحَنَاجِرَ) لأن الرئة تنتفخ من شدة الفزع فيرتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة وهي منتهى الحلقوم وقيل هو مثل'' في اضطراب القلوب ووجيبها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة } (٥) .

وقال ابن قُتيبة : { أي كادت من شدة الخوف تبلغ الحلوق ، وقد يجوز أن يكون أراد : أنها ترجف من شدة الفزع وتجفُ ويتصل وجيفها بالحلوق ، فكأنها بلغت الحلوق بالوجيب . وهم يصفون القلوب بالخفقان والنزو عند المخافة والذعر } (٦) .

---

(١) مناهج في تحليل النظم القرآني /١٣

(٢) تمام السياق القرآني : " إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا " الأحزاب / ١٠

(٣) انظر تأويل مُشْكِل القرآن لابن قتيبة ــ تحقيق السيد أحمد صقر ــ دار التراث ط الثانية ١٩٧٣م /٣١

(٤) الإسراء / ٧٢

(٥) أبو السعود ٩٣/٧ ، وانظر الكشاف ٢٣/٣ ، والتسهيل ١٣٤/٣ والبيضاوي ٢٤٠/٢ ، والبرهان ٥٢/٣ .

(٦) تأويل مُشْكل القرآن ١٧١ ، ١٧٢ .

والملاحظ أن في الآية مبالغة بديعة مقبولة لا تحسُّ ساعة أن تسمعها بنكارة أو نفور ، ولكن تشعر بمدى أثر الخوف الذي اجتاح قلوب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ عندما رأوا الأحزاب يتدفقون من كل جهة : (إذ جاوكم من فوقكم ومن أسف منكم) فاضطربت القلوب اضطرابًا شديدًا كادت منه القلوب أن تصل إلى الحناجر فحسنت من هنا هذه المبالغة ، لأنها كشفت عن استقصاء جميع معاني الخوف ، وأبانت عن مكنون أحاسيس الوجيب والقلق والغم الشديد الذي عبَّر عنه هذا المثل في أروع بيان بتلك الصورة المُحسَّة في التنقل والبلوغ حتى الحلوق .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا [1] اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [2]

الإذاقة هنا واللباس مستعاران ، أما الإذاقة فقد كثر استعمالها في البلايا ، حتى صارت كالحقيقة ، وأما اللباس فاستعير للجوع والخوف لاشتمالهما على اللباس ومباشرتهما له كمباشرة الثوب [3] .

فهذه القرية كانت آمنة مُمَتَّعة ، فلما كفرت عوقب أهلها بإدراك ضرر الخوف والجوع والحرمان ، لكن انظر مدى بلوغ الألم ووصول الضرر إليهم أنهم ذاقوه كما يذاق الطعام المُر البشع وذلك للمبالغة في إدراك الألم ، وفرط استشعارهم إياه ، وانظر ـ ثانيًا ـ إلى إحاطة البلايا والشدائد بهم حتى كأنها لباس اشتمل عليهم للمبالغة في الإحاطة واللزوم ، أما اجتماع الإذاقة واللباس ، وتَرَكُّب الثانية على الأولى فهذا ضرب'' من البلاغة بديع قال ابن عاشور : { ومن بديع النظم أن جعلت الثانية متفرعة على الأولى ومركبة عليها بجعل لفظها مفعولاً للفظ الأولى

---

(١) قال الراغب الأصفهاني : { الذوق : وجود الطعم بالفم ، وأصله فيما يقِلُّ تناوله دون ما يكثُر فإن ما يكثر منه يُقال له الأكل ، واختير في القرآن لفظ الذوق في العذاب ؛ لأن ذلك وإن كان في التعارف للقليل ـ فهو مستطلح للكثير ... وقوله : (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ، فاستعمال الذوق مع اللباس من أجل أنه أريد به التجربة والاختبار أي فجعلها بحيث تمارس الجوع والخوف ، وقيل : إن ذلك على تقدير كلامين ، كأنه قيل : أذاقها طعم الجوع والخوف وألبسها لباسهما } المفردات ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

والنظر لسان العرب مادة (ذ ، و ، ق) .

(٢) تمام السياق : { وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون } النحل/ ١١٢ .

(٣) انظر التسهيل ١٦٣/٢

وحصل بذلك أن الجوع والخوف محيطان بأهل القرية في سائر أحوالهم وملازمان لهم وأنهم بالغان منهم مبلغًا أليمًا } (١) .

ثم انظر إلى تسمية القرآن الصد عن الشريعة ، ومحاداة رسول الله وأولياءه " حربًا " ويحاربون مَنْ ؟ " يحاربون الله " في قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ **يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ (٢) .

فهم قطعًا لا يحاربون الله ــ سبحانه ــ فهم لا يملكون ولا يستطيعون وهم أهون من ذلك وهم كذلك لا يملكون محاربة رسوله بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى فربما قاتله بعضهم في حياته ــ صلى الله عليه وسلم ، بَيْد أن المقصود هو تغليظ أمر محاربة الشريعة والمبالغة في زجر محاداة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومحاربة أوليائه ودور الإسلام التي تحكم بشريعته . قال ابن جُزي : { يُحَاربون الله : **تغليظ ومبالغة** } (٣)

وقال أبو حيَّان : { محاربة الله تعالى غير ممكنة .... وفي قوله " يحاربون الله ورسوله " **تغليظ**'' **شديد**'' لأمر الحرابة والسعي في الأرض فسادًا }(٤) .

ومن نماذجه البديعة : قوله تعالى : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ (٥) . إنه الوصول بمعنى الحب ، وتمكنُه في القلب إلى أقصى غاية حيث تدور المادة اللغوية " شغف " حول تحرُّك الحب ليبلغ مدىً عميقًا في القلب

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ٧ جزء ١٤/٣٠٧

(٢) المائدة/ ٣٣ ، قال ابن منظور : { الحرب : نقيض السِّلم ... قوله تعالى : " فأذنوا بحرب من الله ورسوله " : أي بقتل . وقوله تعالى : " الذين يحاربون الله ورسوله " يعني المعصية ، أي يعصونه } لسان العرب مادة (ح ، ر ، ب) .

(٣) التسهيل ١/١٧٥

(٤) البحر المحيط ٣/٤٨٤

(٥) يوسف/ ٣٠

سواء تمَّ هذا البلوغ بالتغطية والشمول أم بالكي والحَرْق أم بالخَرْق والنفاذ [1] .

وهذا الخرْق النافذ في الحب يفسِّر لنا كيف اجتازت الحواجز المتعددة التي كان من الطبَعي أن تحول دون هذا الهوى المطبق ؟! ، فهي أولاً سيدة'' كبيرة وزوجة عظيم مصر ، وهي ثانيـًا : تمثِّل له الأم وهو لها بمثابة الابن وهذا حاجز'' ثان ثم هي ثالثـًا : المالكة له إذ اشتراه زوجها وهو في عرف المجتمع مملوك'' مُشْترى . وكلها كما ترى موانع حائلة لكينونة هذا الحب . ومن هنا وقعت الصدمة عند نسوة المدينة ، لتعدد هذه الحواجز .... كيف تخطتها ؟! ووقعت فيما لا يجوز الوقوع فيه ، وعلى الرغم من هذا لما رأينه ﴿ أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ [2] .

وما هذا إلا لفرط جماله عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

وكل كلام المفسرين لهذا الموضع تعلق بالناحية اللغوية المعجمية التي يثبتون من خلالها المبالغة في حبها قال عز من قائل : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبـًّا ﴾ { أي شق حُبُّه شغاف قلبها ، وهو حجابه وقيل هو جلدة رقيقة يُقال لها : لسان القلب حتى وصل إلى فؤادها وبهذا يحصل **المبالغة** في وصفها بالحب له ، وقيل : الشغاف : سويداء القلب ، فالمبالغة **حينئذٍ** ظاهرة ، وإلى هذا يرجع ما روي عن الحسن من أن الشغاف باطن القلب } [3] .

---

(١) قال في اللسان : { الشغاف .. غشاء القلب وشغفه الحبُّ يشغفه شَغْفـًا ، وشَغَفـًا : وصل إلى شغاف قلبه . وقرأ ابن عبَّاس قوله تعالى " قد شغفها حبـًا " قال : **دخل حُبُّه تحت الشغاف** ، وقيل : **غشي الحبُّ قلبها** ، وقيل : أصاب شغافها ؛ قال أبو بكر : شَغاف القلب وشَغَفُهُ : غِلافُهُ ... . أبو عبيد : الشَّغْف أن يبلغ الحُبُّ شَغاف القلب ، وهي جلدة'' دونه . يُقال : شَغَفه الحُبّ أي بلغ شغافه وقال الزجاج : في قوله تعالى : " قد شغفها حبـًا " ثلاثة أقوال : قيل الشَّغاف : غلاف القلب ، وقيل : هو حَبَّة القلب ، وهو سويداء القلب ، وقيل : هو داء'' يكون في الجوف من الشراسيف { الشُّرْسُوف : رأس الضلع مما يلي البطن } ... وروي الأزهري عن الحسن في قوله تعالى : " قد شغفها حبـًا " ، قال : الشغف أن يكوي بَطْنها حُبُّه . وروي عن يونس قال : شغفها أصاب شغافها ، مِثْلُ كَبِدَها .. وقال الفرّاء : شغفها حبـًا : أي خَرَق شَغاف قلبها ووصل إليه } لسان العرب مادة (ش . غ . ف) وانظر المفردات ٤٥٧

(٢) يوسف/ ٣١

(٣) روح المعاني ٢٢٦/١٢ ، وانظر التحرير والتنوير مجلد ٦ ٢٦٠/١٢ ، الكشاف ٢٥٢/٢ ، التسهيل ١١٨/٢ ، البيضاوي ٤٨٣/١ ، أبا السعود ٧٠/٤ ، البحر المحيط ٢٩٩/٥ القرطبي ٣٤٩٩/٤ ، الصاوي على الجلالين ٢٠٤/٢ ، تلخيص البيان /١١٥ .

وانظـــر إلى هذا المثل في تعجُّل الإنسان وعدم نظره في العواقب في قولـــه تعـــالى : ﴿ وَيَدْعُ الإنســـانُ بالشرِّ دُعَـــاءه بالخـــيرِ وكان الإنســـانُ عَجُولاً ﴾ (١) .

هل رأيت إنسانـــًا يدعو على نفسه ؟ .. إنه أمر عجيب .. إذ المعلوم أن يدعـــو الإنسان لنفسه ولولده ولأهله .. أما أن يدعو على نفسه فذاك أمر يدعـــو للدهشـــة ، لكن مَنْ هذا الإنسان ؟! يمكن حصر أقوال المفسرين في معنيين :

المعنى الأول : المراد به المؤمن عن طريقين : الأول عند الغضب ، فهو أحيانـــًا يدعو على نفسه أو ولده ثم ما يلبث أن يندم ويتأسَّف عما دعا به والآخـــر : عند الدعاء فهو يدعو بما يظن أنه خير ويتضح بعد حين أنه شر كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَى أن تُحِبُّوا شيئـــًا وهو شرٌّ لكم ﴾ (٢) . ؛ إذ يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله لا يتأتى فيه تأتي المبتصر (٣) .

المعـــنى الآخر : المراد به الكافر كقول " النضر بن الحارث " : اللهم انصر خير الحزبين . فأجيبِ له فضرب عنقه صبرًا يوم بدر (٤) أو كقول قريش وذمها في ذلك : ﴿ اللَّهمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فَأَمْطِر علينا حجارةً من السماءِ أو ائتنا بعذابٍ أليمٍ ﴾ (٥) وكان الأولى أن يقولوا فاهدنا إليه وارحمنا (٦) .

وفـــي كلا السياقين يبرز جانب التعجُّل ، فتلك صفة جِبِلِّية في الإنسان مـــن اجـــل ذلك خُتمت الآية بالفاصلة : ﴿ وكانَ الإنسانُ عَجُولاً ﴾ وبيَّن أن دلالة صيغة المبالغة " عجولاً " كافية في كشف هذا الجانب الإنساني .

---

(١) الإسراء/ ١١

(٢) البقرة /٢١٦

(٣) انظر الكشاف ٣٥٣/٢ ، البحر المحيط ١٢/٦ ، أبا السعود ١٥٩/٥ ، الصاوي على الجلالين ٢٩٠/٢

(٤) انظر البيضاوي ٥٦٦/١

(٥) الأنفال/ ٣٢

(٦) انظر البحر المحيط ١٢/٦

ومما تجدر الإشارة إليه أن الإيمان يعمل على عكس هذا الطبع ، إذ يؤصل في الإنسان جانب التأني ، ويحبب إليه التمهل والنظر الثاقب في عواقب الأمور قبل الإقدام عليها ، كما يربي في النفس جانب التفويض وترك الأمر إلى الله تعالى ليحصل له الراحة في الدنيا والسعادة في العقبى ولا يتعجل بحيث يسارع إلى الانتقام ممن ظلمه والدعاء على من أساء إليه ؛ بل الواجب إما التفويض أو الدعاء للظالم بالهداية والتوفيق للخير كما أشار الصاوي على الجلالين (١) . وتبدو المبالغة في بروز جانب التعجل أقصاه إلى الدرجة التي يدعو فيها بالشر على نفسه من تعجله .

ومن المعاني البديعة وصف العمل بالطائر كما في قوله تعالى :

" وَكُلَّ إنسَانٍ أَلْزَمْناه طَائِرَه في عُنُقِهِ " (٢) .

طائر كل إنسان ما يطير من عمله كما كانت تسميّة العرب ، وجعله في عنقه لشدة اللزوم وكمال الارتباط ، وإيثار لفظ " طائره " على عمله قائم على طريقة القرآن في تجسيم المعاني وإبرازها في صورة حسية و "سُمي العمل طائرًا ، لأن العرب إذا أرادوا فعل أمرٍ نظروا إلى الطير إذا طار فإن طار مُتيَامنًا قدموا على ذلك الأمر ، وعرفوا أنه خير ، وإن طار مُتياسرًا تأخروا وعرفوا أنه شر ، كلما كثر ذلك منهم سموا انفس الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه " (٣) .

ومناط الإعجاز في التعبير القرآني : " طائره في عنقه " في لفظي " طائر " و " عنقه " فالأول له معانٍ متعددة ، فهو يعني العمل كما يعني النصيب والحظ ، واختص هذا

---

(١) انظر الصاوي على الجلالين ٢/٢٩٠ ، وغنيٌ عن القول أن أنوّه إلى أن الدعاء على الظالم أو الدعاء له إنما يتوقف على جُرْم الظالم فإن كان طاغيًا باغيًا فادح الظلم فالآثار على ضد ما ذهب إليه " الصاوي " فقد دعا نبي الله نوح ــ عليه السلام ــ على قومه لما بغوا ودعا نبي الله موسى ــ عليه السلام ــ على فرعون لما طغا وتجاوز الظلم ، ودعا النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ على قبائل عضل وقارة وعلى العرنيين لما تجاوزوا في الظلم في حين دعا لقومه ما لم يتجاوزوا " اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون " .

(٢) الإسراء/ ١٣ ، قال ابن منظور : { طائر الإنسان : ما حصل له في علم الله مما قُدّر له ومنه الحديث : بالميمون طائره ؛ أي بالمبارك حظُّه ، ويجوز أن يكون أصله من الطير السانح والبارح . وقوله عز وجل : " وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه " قيل حظه وقيل عمله وقال المفسرون : ما عمل من خير أو شر ألزمناه عنقه ، إن خيرًا فخيرًا وإن شرًا فشرًا .. وقيل : شقاوته وسعادته " لسان العرب مادة (ط . ي . ر)

(٣) الصاوي على الجلالين ٢/٢٩١ .

اللفظ " طائره " دون غيره للتعبير عن عمله الصادر عنه باختياره حسبما قدّر لـــه كأنـــه طار إليه من عش الغيب ، ووكر القدر أو ما وقع له في القسمة الأزلـــية الواقعة حسب استحقاقه في العلم الأذلي من قولهم طـــــار له سهم كذا [١] .

أمـــا إعجاز اللفظ الآخر " في عنقه " فالظاهر أن يصير العمل بالنسبة للإنســـان كـــالقلادة أو الغل للعنق لا ينفك عنه بحال ومنه مَثـــلُ العرب : تقلدها طوق الحمامة وقولهم الموت في الرقاب وهذا ربقة في رقبته [٢] كما خُـــصَّ العنق بذلك أيضـــًا ؛ لأنه محل الزينة والشين ، فإن كان خيرًا زانه كما يزين الطوق أو الحلي ، وإن كان شرًا شانه كالغل في الرقبة [٣]

وتبدو دلالة المبالغة في السياق في إبراز مدى التلازم ، والتلاصق بين الإنسان وعمله في صورة الطائر في العنق كالقلادة أو الطوق .

وثمـــّة نماذج بديعة ساقها صاحب البرهان مناط المبالغة فيها في ترك التجنـــيس ، فالمعهود أن يؤدي الجناس إلى إيقاعٍ ، وجمال ، أما أن يؤدي تـــركه إلى جمال وإلى قوةٍ في المعنى فهذا مناط الإعجاب وموطن الإبداع والإعجاز كذلك كما في قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤمنٍ لَنَا وَلَوْ كُنـــَّا صَادِقين ﴾ [٤] قال : معناه :

---

(١) انظر أبا السعود ٥ / ١٦١

(٢) انظر الكشاف ٢/٣٥٤

(٣) انظر البحر المحيط ٦/١٤

(٤) يوسف /١٧

ومــا أنت مصدِّق لنا ، فيقال : ما الحكمة في العدول عن الجناس ، وهــلّا قيل : " وما أنت بمصدِّق لنا ولو كنا صادقين " ، فإنه يؤدي معنى الأول مع زيادة رعاية التجنيس اللفظي ؟ .

والجواب أن في " مؤمنٍ لنا " من المعنى ما ليس في " مصدِّق " ، وذلك أنك إذا قلت : " مُصدِّق لي " فمعناه : قال لي : صدقت ، وأما " مؤمن " فمعناه مع التصديق إعطاء الأمن ومقصودهم التصديق وزيادة ، وهو طلب الأمن ؛ فلهــذا عدل إليه . فتأمل هذه اللطائف الغريبة والأسرار العجيبة فإنه نوع'' من الإعجاز (١) .

ومنه كذلك قوله تعالى :

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ (٢)

فذكر الرازي في تفسيره أن الكاتب المُلقَّب بالرشيدي ، قال : لو قيل : " أتدعون بعلاً وتَدَعون أحسن الخالقين " أوهم أنه أحسن ، لأنه كان تحصل به رعاية معنى التجنيس أيضــًا ، مع كونه موازنــًا لــ " تذرون " وأجاب الــرازي : بأن فصاحة القرآن ليست لأجل رعاية هذه التكلفات بل لأجل قوة المعانــي وجزالة الألفاظ . وقال بعضهم : مراعاة المعاني أولى من مراعاة الألفــاظ ، فلو كان " أَتَدْعون " " وتَدَعون " كما قال هذا القائل لوقع الإلباس على القارئ فيجعلهما بمعنى واحد تصحيفًا منه ، وحينئذٍ فينخرم اللفظ ، إذا قرأ " وتَدْعون " الثانية بسكون الدال ، لاسيما وخط المصحف الإمام لا ضبط فيه ولا نقط . وأجاب " الجويني " أيضــًا عن هذا بما يمكن أن يتلخص منه : أن " يذر " أخصّ من " يَدَع " وذلك لأن الأول ، بمعنى تَرْك الشيء اعتناء ، بشهادة الاشتقاق ، نحو الإيداع ، فإنه عبارة عن ترك الوديعة مع الاعتناء بحالهــا ، ولهــــذا يُخــتار لهــا مَــنْ هو مؤتمن عليـــها ومن ذلك : الدَّعـــــة بمعــنى الــراحـــــة . وأمــا "تذر" فمعنــــاها الترك مطلقــًا ، والترك مع الإعراض والرفض الكلـــي ، ولاشك أن الســـياق

---

(١) انظر البرهان ٣ / ٤٥٤ ، والإتقان ٣ / ٢٧٣

(٢) الصافات/ ١٢٥

إنما يناسب هذا دون الأول ، فأريد هنا تبشيع حالهم في الإعراض عن ربهم **وأنهم بلغوا الغاية في الإعراض** (١) . ومن هنا فلفظ " تدَعون " وإن كان يحقق الجناس إلا أن لفظ " تذرون " الذي جاء به النظم يحقق القوة في المعنى **والمبالغة** في الترك والإعراض ؛ ليصل بنا في النهاية إلى كشف أسرار دلالات القرآن .

وأخيرًا من النماذج التي يقف المتلقي حيالها طويلاً قوله تعالى :

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (٢)
ما المقصود من كلمة " أعمى " في الموضعين من السياق ؟!

وخلاصة أقوال العلماء في الموضعين يتلخص في ثلاثة مذاهب :

أعمى الأولى	أعمى الأخرى
الأول : أعمى القلب	أشد عمىً للقلب (٣)
الثاني : أعمى القلب	أعمى البصر (٤)
الثالث : أعمى البصر من الكفار	يحشر أعمى البصر كذلك (٥)

والأول : أولى المعاني وتكون أعمى الثانية على سبيل أفعل التفضيل وذلك { لأن الإنسان في الدنيا يمكن أن يؤمن فينجو ، وهو في الآخرة لا يمكنه ذلك فهو أضل سبيلاً وأشدّ حيرة وأقرب إلى العذاب } (٦) ودليله قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٧) .

---

(١) انظر البرهان ٣ / ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، وانظر الإتقان ٣ / ٢٧٤

(٢) الإسراء / ٧٢

(٣) انظر التسهيل ١٧٦/٢ ، الكشاف ٣٦٩/٢ ، ٣٧٠ ، البحر المحيط ٦٠/٦، ٦١

(٤) انظر التسهيل ١٧٦/٢ ، البحر المحيط ٦٠/٦

(٥) البرهان ١٧٠/٤

(٦) البحر المحيط ٦١/٦

(٧) الحج/ ٤٦

أمـا القول الثاني فدليله قوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا ﴾ (١) وقوله : ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ (٢) .

أما القول الثالث فلا دليل عليه نقلاً أو عقلاً .

والخلاصة أن القول الأول أرجح وفيه يلقى الكافرون زيادة في العمى والضلال والحيرة والتخبط في الآخرة عما كانوا عليه في الدنيا من ضلال حيث تتبدَّى منهم علائم الأسى والحسرة ، وذلك لتضاعف النكبات عليهم ؛ إذ إن مشهد هذا العمى وذاك الضلال في ذلك الموقف العصيب مقصود'' في ذاته لإذاقتهم لونًا من العذاب الأليم جزاءً وفاقًا لما قدَّموا .

---

(١) الإسراء/ ٩٧

(٢) طه/ ١٢٥ ، ١٢٥

obeikandl.com

٢- الإيقاع

الإيقـاع [١] فـي أجمل صوره هو وحدة النغمة المتكرِّرة على نحوٍ ما في الكلام ، بتوالي الحركات والسكنات على نحو منتظم في آيتين أو فقرتين أو أكـثر مـن ذلـك وهو يعمل في الوقت ذاته على إحداث التوافق الدقيق بين التكويـنات الصوتية للجملة وإيقاع الكلمات ، وحروف الوقفات ، وامتدادات الجمـل وعلاقاتهـا وتكـرار أو تغاير الكلمات والأصوات فيها وبين الحالة الشعورية المُعبَّر عنها [٢] .

وهو في تناغمه وانسجامه في الأداء الأدبي ، يَبْرُز متجاوبًا بحركته المنتظمة فـي الكون كُلـِّه ، بل إنه ليمسُّ حياة الإنسان نفسه ، إذ تنتظم هي الأخرى في إطار الإيقاع العام [٣] .

هذا الإيقاع المنتظم في ثنايا العمل الأدبي ، ربما يتأتى في بعض حالاته تولُّد الفكـرة والصـورة ، بما يُتيحه من جَرْس ناشيء من حسِّ الإيقاع ، وحسِّ البـناء وهذا يعطي الشعور بأن { الإحساس بالنغم قد يسبق الإحساس بالفكرة وبالصـورة ... وهنا يتجلـَّى مبحث مهم عن أثر الوزن والإيقاع في تشكيل الصورة ، وبإمكان هذا القول أن يُفسِّر الإقواء ويُحـدِّد بواعثه وأن يُعلـِّل فكرة استقلال البيت بمعناه الذي ألـح عليه النقد العـربي طويلاً } [٤] إذ " كثـيرًا مـا يشـترك الوصف والحوار وجرس الكلمات ونغم العبارات ، وموسـيقى السـياق فـي إبراز صورة من الصور تتملاها العين والإذن ، والحِس والخيال والفكر والوجدان } [٥] .

---

(١) رجعـت فـي درس الإيقاع إلى الكتب الآتية : الفاصلة القرآنية د . عبد الفتاح لاشين ــ دار المريخ الـرياض طبعة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م ، من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية د. محمد الأمين الخضـري ١٩٩٤م ، الـبديع في شعر شوقي د. منير سلطان ، منشأة المعارف بالإسكندرية ط الثالثة ١٩٩٢م /٢٣-٢٦ ، موسـيقى الشـعر د. إبراهيم أنيس مكتبة الأنجلو المصرية ط السابعة ١٩٩٧م ، الإعجاز البياني للقرآن ــ د.عائشة عبد الرحمن ــ دار المعارف ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ــ الطبعة الثانية ، خصائص التعبير القرآني ــ د. عبد العظيم المطعني ــ مكتبة وهبة ط الأولى ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢م ، اللغة الفنية ــ د. محمد حسن عبد الله ــ دار المعارف / ٨-١١ وغيرها من الكتب .

(٢) انظر اللغة الفنية ١٢

(٣) انظر البديع في شعر شوقي /٢٢

(٤) الصورة والبناء الشعري /١٠

(٥) التصوير الفني في القرآن /٣٥

والإيقاع الموسيقي الناشيء من تخيُّر الألفاظ ونظمها في نسق خاص يتناغم تناغمًا ملحوظًا مع التناسق النفسي ، ويتواءم تواؤمًا بَيِّنًا مع البعد الوجداني والفكري ؛ إذ لا يقف في التعبير القرآني عند حدود الإيقاع الظاهري كما يتراءى للكثير من الشعراء والأدباء { إننا أمام لحن غريب ، وتوقيع عجيب يفوق في حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى ، وترنيم الشعر ؛ لأن الموسيقى تتشابه أجراسها وتتقارب أنغامها ، فلا يفتأ السمع أن يملَّها ، والطبع أن يَمُجَّها ، ولأن الشعر تتحد فيه الأوزان ، وتتشابه القوافي في القصيدة الواحدة غالبًا وإن طالت ، على نمطٍ يورث سامعه السأم والملل ، بينما سامع لحن القرآن لا يسأم ولا يمل ، لأنه يتنقل فيه دائمًا بين ألحانٍ متنوعة وأنغام متجددة ، على أوضاع مختلفة يهز كُلٌّ منها أوتار القلوب ، وأعصاب الأفئدة ، وهذا الجمال الصوتي أو النظام التوقيعي ، هو أوَّل شيء أحسته الآذان العربية أيام نزول القرآن ، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام ، سواء أكان مرسلاً أم مسجوعًا } (١) .

ويتجلَّى إعجاز النظم الحكيم في المواءمة الدقيقة بين جمال الشكل والمضمون ، فإذا أنعمت النظر في تناسب الفصول والمقاطع ، خلت أنه يعمد إليه ويتوخَّاه ، وإذا تأملت المعاني والأغراض وجدت أنه أحكم نسق الألفاظ ، وفقًا لتواثب المعاني وحركتها في الأذهان ، فمن أي جانب نظرت ودققت وقعت على سِرٍّ من أسرار الإعجاز (٢)

وعلى هذا { تقع الفاصلة عند الاستراحة بالخطاب لتحسين الكلام بها وهي الطريقة التي يُباين القرآن بها سائر الكلام ، وتُسمىَّ فواصل ؛ لأنه ينفصل عندها الكلامان ، وذلك أن آخر الآية فصلٌ بينها وبين ما بعدها وأخذًا من قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ (٣) . ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعًا ؛ لأن الله تعالى لمَّا سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافية عنه أيضًا ، لأنها منه وخاصة في الاصطلاح ، وكما يمتنع استعمال

---

(١) مناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني ـ مطبعة عيسى الحلبي وشركاه ٢/٣١٠

(٢) انظر من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية /٣ من المقدمة

(٣) هود / ١

القافية ، يُمتنع استعمال الفاصلة في الشعر ؛ لأنها صفة لكتاب الله تعالى فلا تتعدّاه } (١) .

والظاهر أن الفاصلة تأتي على ضربَيْن : الأول : جملة تامة مستوفاة الأركان مثل قوله تعالى : ﴿ وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفي الله المؤمنين القتال وكان الله قويًا عزيزًا ﴾ (٢) والثاني : يأتي كلمة متممة لمعنى الآية مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ (٣)

وتؤدي الفاصلة دورًا بالغًا في البناء اللغوي ؛ وليس مجرد تتمة صوتية يحْسُن الوقوف عليها مع ما يناظرها في الآيات المتتابعة ، فهي تقوم بقيمتين مهمتين في آنٍ واحدٍ : قيمة صوتية جمالية وأخرى بنائية معنوية وهذا في حدِّ ذاته يُبطل الزعم القائل بأن الفاصلة تعمل للمعنى والسجعة تعمل للصوت .

واللافت أن القدماء أدركوا هذا الدور الشامل للفاصلة في وفائها للمعنى مع محافظتها على الجَرْس والإيقاع إذ { ذكر الزمخشري في كشافه القديم أنه لا تَحسُن المحافظة على الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعاني على سدادها على النهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه ، كما لا يحسن تخيُّر الألفاظ المونقة في السمع ، السلسة على اللِّسان ، إلا مع مجيئها منقادةً للمعاني الصحيحة المنتظمة ، فأمَّا أن تُهمَل المعاني ، ويُهتَم بتحسين اللفظ وحده غير منظور فيه إلى مؤداه على بال ؛ فليس من البلاغة في فتيلٍ أو نقيرٍ ، ومع ذلك يكون قوله : ﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ (٤) وقوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهم يُنفِقُون ﴾ (٥) لا يتأتى فيه ترك رعاية التناسب في العطف بين الجمل الفعلية إيثارًا للفاصلة ــ لأن ذلك أمر '' لفظيّ لا طائل تحته ــ وإنما عُدِل إلى هذا لقصد الاختصاص } (٦) .

---

(١) الإتقان ٣ / ٢٩٢

(٢) الأحزاب/ ٢٥

(٣) سورة الفلق كاملة .

(٤) البقرة/ ٤

(٥) البقرة/ ٣

(٦) البرهان ١ / ٧٢

ومن النماذج التي جاءت فيها الفاصلة مُراعيةً الجانبين معًا : الجَرْس والمعنى قوله تعـــالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (١)

فقد تمَّ **الالتفات** في السياق من صيغةَ اسم الفاعل " شاكرًا " إلى صيغة المـبالغة " كفـورًا " ليحقق مراعاةَ فواصل السورة المبنية على روي الراء المتلوة بألف الإطلاق والمردوفة بالمد الواوي أو اليائي (٢).

ومن ناحية أخرى ليُثري جانب الدلالة كما أشار إلى ذلك أبو حـيان : { لمـا كان الشكر قل من يتصف به قال " شاكرًا " ، ولما كان الكفر كثر من يتصف به ، ويكثر وقوعه من الإنسان بخلاف الشكر جاء " كفورًا " بصيغة **المـبالغـــة** } (٣) بدلـيــل قولـه تعـالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٥)

وثمـة نكـتة جمالية في إيثار الإيقاع عند تقارب اللفظين إذ كانتا من صيغ المبالغة ، فتؤخر الكلمة التي بها تتحقق المحافظة على الفاصلة كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٦)

فصـيغة " ولـيّ " على وزن فعيل للمبالغة ، ومثلها " نصير " وهما متقاربتان وقد جاءت الفاصلة " نصير " مراعاةً لفواصل الآي التي جاءت في الغالـب على روي الراء المردوفة بالمد اليائي " قدير ـ بصـيـر " قال أبو حـيان : { أتى بصيغة وليّ وهو : فعيل للمبالغة ... وأتى بنصير على وزن فعـيل لمناسـبة وليّ في كونهما على فعيل ، **ولمناسبة أواخر الآي** ، ولأنه أبلغ من فاعل } (٧).

---

(١) الإنسان/ ٣

(٢) انظر مبحث الالتفات .

(٣) البحر المحيط ٨ / ٣٨٧

(٤) سبـأ/ ١٣

(٥) ابراهيم/ ٣٤

(٦) البقرة / ١٠٧

(٧) البحر المحيط ١ / ٥١٥

وهناك فروق دقيقة بين الوليّ والنصير ، فعلى الرغم من أن الوليّ من معانيه الناصر [١] إلا أن الوليّ قد يضعف عن النصر ، والنصير قد يكون أجنبيـًا عن المنصور فبينهما عموم وخصوص من وجه [٢].

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [٣]

فقد قُدِّم الجار والمجرور " عليكم " لرعاية الفاصلة " رقيبًا " القائمة في الغالب على وزن " فعليلاً " مثل : { رقيبًا ــ كبيرًا ــ مريئـًا } بيد أن هذا الأداء الإيقاعي يتواصل تواصلاً حميمًا مع أداء التقديم البلاغي " عليكم " إذ يعني اختصاص عناية الله ــ عز وجل ــ بنا ؛ فهو مُطـّلع على جميع ما يصدر عنـّا من أفعال وأقوال ، وعلى ما في ضمائرنا من نيات ، مما يستوجب علينا أن نتقي الله ولا نعصيه ، كما يلفت لفظ " رقيبًا " بالإضافة إلى اختصاص تقديم الجار والمجرور إلى حفظ الله للخلق كما قال ــ عز من قائل : ﴿ وما يَعْزُبُ عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتابٍ مبين ﴾ [٤]

كذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسانَ لِرَبِّه لكنود * وإنَّه على ذلك لشهيد * وإنَّه لِحُبِّ الخيرِ لشديدٌ ﴾ [٥]

حيث تقدم الجار والمجرور " لربه " على الفاصلة " كنود " وتقدم الجار والمجرور " على ذلك " على الفاصلة " شهيد " و " لحب الخير " على الفاصلة " شديد " [٦] وكلها صيغات للمبالغة على وزن " فعيل " .

أضف إلى ذلك عطاء التقديم في الآية الأولى بيان لمدى جحود الإنسان لنعم ربه في المقام الأول كما جاء في الأثر " خيري إليهم نازل وشرهم إليّ صاعد " وفي الآية الثانية امتداد للآية الأولى في أنه شاهد علي

---

(١) انظر المفردات /٨٨٥ ، لسان العرب مادة { و . ل . ي } .

(٢) انظر الصاوي على الجلالين ١ / ٤٨ ، البيضاوي ١ / ٢١٧

(٣) النساء/ ١

(٤) يونس / ٦١

(٥) العاديات/ ٦ ، ٧ ، ٨

(٦) انظر الصاوي على الجلالين ٤ / ٢٩٤

هــذا الكنود ُمقر به ، ثم تأتي الآية الثالثة ، وفيها بيان لحب الإنسان الشديد للمــال وحرصه عليه ، حيث دلَّ التقديم على اختصاص المال بهذا الحرص مما يؤدي إلى بخله الشديد به .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ (١)

إذ أمــر النبــي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يبالغ في نصح هؤلاء المنافقيــن بكــلام مؤثــر يصل إلى سويداء قلوبهم ليكون ذلك ردعًا لنفاقهم وزجرًا لهم عن هذا الفعل القبيح ، لكن اللافت هو تقديم الجــار والمجــرور " فــي أنفسهم " وذلك لأمرين : الأول : الاهتمام بإصلاح أنفسهم ، إذ ما تمَّ النفاق إلا عبر اعوجاج النفس . والآخر : رعاية الفاصلة (٢).

---

(١) النساء/ ٦٣

(٢) انظر التحرير والتنوير مجلد ٣ ٥ / ١٠٨

obeikandl.com

٣- الصـــــورة

الصـــورة جوهر التعبير الجمالي ونتاج اللغة الفنية ، رُسمت بكلمات ، ربما تكونـــت مـــن وصف أو مجاز أو تشبيه ، وربما تبلورت من كلمات حقيقية لكنها تحمل شحنات مزدانة بالعاطفة أو الانفعال .

وإذا كانـــت الصـــورة تتكئ في تقريبها إلى الأذهان على التجسيم ، أو رؤية الأشـــياء ماثلـــة أمام العيان فإن " ثمة دلالة أخرى للصورة أوسع دائرة من الدلالـــة الســـابقة ، وهذه الدلالة مستخدمة لدى علماء النفس وعلماء الجمال وتتمـــثل فـــي انهـــا استحضـــار العقـــل أو التولـــيد العقلـــي Mental Reproductionلمـــا سبق إدراكه بالحواس وليس بالضرورة أن يكون ذلك المـــدرك مرئيـــاً Visual فتدخل مدركات الحواس الأخرى من المسموعات والمشـــمومات والمذوقـــات ، والملموســـات ، وهـــذا الاستحضار أو التوليد للمدركات الحسية (الصورة) مجال اختلاف بين البشر تبعـــاً لاختلافهم في أنواع التجارب مع الأشياء الحسية التي مرَّ بها كل منهم ، والتي يتألف منها رصـــيده النفسي الذي يستثار عن حضور الرمز الدال وهو الكلمة أو التعبير ... وبهـــذا المعـــنى للصـــورة لا يقتصر ورودها على التشبيه والمجـــاز ، والكناية ، بل تأتي أيضـــاً بأسلوب الحقيقة " (١) .

وإذا كانـــت الصورة رســـماً بالكلمات سواء أكانت تعبيراً بأدوات بلاغية أم بكلمـــات حقيقية ، فإن الناتج الدلالي هو الذي يعكس صداه على المتلقي بما يـــتماثل له من تصوير ومتى أحسنَّا فهم القرآن ، وأجدنا التعامل والتفاعـــل معه ، فإنه سيتبين لنا ــ دومـــاً ــ أدوات ممتدة للتوصيل جديرة أن تُحدث فيـــنا التأثر المنشود دون التقوقع داخل الذات (الذي أدَّى إلى انكماش الفكر والرؤية القرآنية في واقع حياتنا وتحول القرآن من مراكز الحضارة وصناعة الحياة إلى الركود والتحفظ في بطون التاريخ التي شكلت في عصور التخلف والتقلـــيد والتي حاولت دون إدراك أبعاد النص القرآني والقدرة على تعديته للزمان والمكان) (٢) .

---

(١) التعبير البياني ــ د . شفيع السيد / ١٤٢

(٢) كيف نتعامل مع القرآن ــ الشيخ محمد الغزالي ــ نهضة مصر ١٩٩٨م / ١٥

ومـــع جنوح النقد الحديث لإيثار مصطلح " الصورة " بديلاً عن المجاز أو الاســتعارة ، فــإنك تلمس بسهولة تصنيف الصور بحسب الحاسة التي تتجه إلــيها كل صورة سمعــًا أو بصرًا (صور الألوان والأشكال) أو ذوقــًا أو شــمًا أو الحركة [١] وإننا لنجد القرآن فيضــًا في هذا الجانب حيث تتنوع أداة التصــوير فــيه (فهــو يعبر بالصورة المُحَسَّة المتخيلة عــن المعــنى الذهني ، والحالة النفسية عن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، وعن الــنموذج الإنســاني والطبــيعة البشرية ، ثم يرتقى بالصورة التي يرسمها فيمــنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حــركة ، وإذا الحالــة النفســية لوحــة أو مشــهد ، وإذا النموذج الإنساني شــاخص'' حــيّ ، وهــذه الطبيعة البشرية مجسمة مرئية ، فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر فيردها شاخصة حاضرة فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت كل عناصر التخييل ، فما يكاد يــبدأ العــرض حتى يُحيل المستمعين نظّارة وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحــوادث الأول ، الــذي وقعت فيه أو ستقع حيث تتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات ، وينسى المستمع أن هذا كلام'' يُتلى ، ومثل يُضرب ويتخيل أنه منظر'' يعرض وحادث يقع ، فهذه شخوص'' تروح على المسرح وتغدو ، وهذه سمات الانفعال بشتّى الوجدانات ، المنبعثة من الموقف ، المتساوقة مع الحــادث وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة فتنم عن الأحاسيس المضمرة إنها الحياة هنا ، وليست حكاية حياة) [٢] .

وتنقسم الصورة قسمين :

أولاً ــ كلية

ثانيًا ــ جزئية

أولاً : الصورة الكلية

الصورة الكلية هي نسيج مؤتلف من أدوات وأساليب وألوان متنوعة لا تقف فيها الصورة عند حدود الألوان البيانيــــــة ومن هنا " يجب أن نتوسع في

---

(١) انظر اللغة الفنية ٧٣ ، ٧٤

(٢) التصوير الفني في القرآن /٣٤

معنى التصوير باللون ، وتصوير الحركة ، وتصوير الإيقاع ، وكثيرًا ما يشترك الوصف والحوار ، وجَرْس الكلمات ، ونغم العبارات) .

وموسيقى السياق ، في إبراز صورة من الصور تتملاها العين والأذن ، والحِسّ والخيال والفكر والوجدان) [١].

ومن أدوات الصورة الكلية التي لها تعلُّق بالمبالغة :

أ ــ البُعد الحركي .

ب ــ البُعد الصوتي .

جـ ــ البُعد اللوني .

د ــ البُعد النفسي .

هـ ــ الطباق .

و ــ الحال .

ز ــ الصفة .

وبدهي أن دور " المبالغة " في كل هذه الأدوات سيكون دورًا مساعدًا فقط ، إذ لا تنهض " بنية المبالغة " أن تؤدي وحدها صورة فنية إلا إذا اعتمدت على غيرها من الألوان ، سوى بعض الصور الجزئية التي أدَّت فيها المبالغة دورًا كاملاً في الصورة .

---

(١) التصوير الفني في القرآن /٣٥

obeikandi.com

أ ـ البُعد الحـركي

تعمـد الصـورة ـ أحـيانـًا ـ على الاتكاء على الجانب الحركي لإبراز ما تتضمنه من أفعال تنصب دلالة على هذا الجانب ولا يخفى دوره في الإنابة عن حـيوية الصـورة وأدائهـا المتمثل في الحركة المتجددة وهذه بدورهـا تنقسم قسمين : حركة صغرى مثل حركة النفخ من الفم وإشارة اليد والرءوس...الخ ، وحـركة كـبرى ، وهي حركة الانتقال من مكان إلى مكان ، ومن حـال إلى حـال ، بما فيها حركة الإنسان ، والطبيعة في مختلف مناحيها ، ولكل حركة مـنها جمالهـا . وأسلوب القرآن لا يخلو من اللمسات الفنية التي يُرى فيها هذا الجانـب واضـحـًا (حيـث تـتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات وينسى المسـتمع أن هـذا كلام يُتلى ، ومثل يُضرب ، ويتخيل أنه منظر '' يُعرض ، وحـادث يقـع ، فهـذه شخوص '' تروح على المسرح وتغدو ، وهذه سمات الانفعـال بشـتى الوجدانات المنبعثـة من الموقف ، المتساوقة مع الحوادث ، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة فتنم عن الأحاسيس المضمرة) (١) .

ولسـت أريـد أن أقـف أمام جزئيات الصورة ، وأسطر هنا لون ... هنـا حـركة ... هـنا تشـبيه ...! فإن في هذا تجزئة للصورة وتشتيتـًا للرؤية البلاغـية ، ومكونـات التعبير اللغوي ينبغي أن تتبني في نسف متآلف يخـدم بعضُه بعضـًا ، وتتآزر عناصره لتشكيل أوجه الدلالة المرجوة من التعبير ومن هذه النماذج قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢)

هـل لـك أن تتصور قومـًا ... يقومون .. وهم قلة .. ضعفاء .. ضُؤَلاء .. بمحاولـة إطفـاء نور عظيم ، وآلة الإطفاء لديهم " الفم " ؟ هل تستطيع الأفواه المجـردة .. أو حتى على سبيل الفرض مستعينة بآلات إطفائية ؟ هل تستطيعُ إطفـاءَ الـنور الذي يشبه الشمس الساطعة ؟! فما ينفع نفخُ ضعيف '' من أفواهٍ عاجزة لشمسٍ ساطعة قاهرة بضوئها أنفـاس المرجفين ؟! لقد (مُثـّل حالهم فـي طلبهم أن يبطلوا نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نورٍ عظيم منبث في الآفاق ، يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى في الإشراق والإضاءة ليطفئه بنفخه ويطمسه) (٣) .

---

(١) التصوير الفني في القرآن /٣٤

(٢) التوبة/ ٣٢

(٣) الكشاف ٢ / ١٤٩

وتتبدى المبالغة في هذا البون الشاسع بين أفواه عاجزة ، ونور الله العظيم المشرق في الآفاق (١) .

ويتمثل جمال الصورة في تلك الاستعارة البديعة في تصوير الإسلام بالنور ، وتشبيه محاولي إبطاله بمريدي إطفاء ذاك النور ، وتبلغ الصورة ذروتها في الفنية في آلة الإطفاء " الأفواه " إذ هي نفسها آلة التكذيب كما قال ابن عاشور : { ومن الرشاقة أن آلة النفخ وآلة التكذيب واحدة وهي " الأفواه " } (٢) .

أضف إلى جمال الصورة ، إضافة النور إلى اسم الجلالة إشارة إلى أن محاولة المرجفين المكذبين إطفاء نور الله عَبَثٌ وخَرْقٌ وأن أصحاب تلك المحاولة لا يبلغون مرادهم مهما حاولوا !

ومنه أيضًا قوله تعالى على لسان إبليس : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٣)

يجوز أن يكون من قولهم : حنكت الدابة : أصبت حنكها باللجام والرَّسن فيكون نحو قولك : لألجمنَّ فلانًا ، ولأرسننَّه ، ويجوز أن يكون من قولهم : احتنك الجراد الأرض ، أي استولى بحنكه عليها ، فأكلها واستأصلها (٤) .

---

(١) واللافت في السياق الإشارة إلى المفارقة الدلالية الكبرى التي تنطوي عليها الآية بين لفظي : " يريدون " .. و " يأبى " إذ هم يريدون الإفساد ويسعون في ذلك غاية السعي ويطمعون في ذلك غاية الطمع كما يتصور أعداء الإسلام ــ اليوم ــ أن بقدرتهم هدم الكعبة وإزالة الإسلام وتقويض شريعة الملك ، لكن انظر إلى الجواب الشافي ، والرد الكافي في قوله تعالى : " ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون " ، لأنه هو ــ سبحانه ــ ناصر رسوله ودينه وأوليائه ، ولذلك جاء عقب هذه الآية مباشرة قول الله تعالى : " هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " التوبة /٣٣ .

(٢) التحرير والتنوير مجلد ٦ ١٠/١٧١

(٣) الإسراء/ ٦٢ ، " يقول أحدهم : لم أجد لجامًا فاحتنكت دابتي ، أي ألقيت في حنكها حَبْلاً وقدتها . وقال الأخفش في قوله تعالى : " لأحتنكن ذريته " قال : لأستأصلنهم ولأستميلنهم " لسان العرب مادة { ح . ن . ك } .

(٤) انظر المفردات /٢٦١ .

ومـــن هنا فالصورة ترسم سيطرة إبليس على بني آدم ــ إلا من رحم الله ــ حيـــث يقودهم كما تُقاد الدابة بحنكها ، لا تستطيع أن تتملّص من اللّجام أو أن تَـــنخلع عـــنه أو كمـــا يحتنك الجراد الأرض ، وفي المعنيين يبرز البُعـــد الحركـــي ، وتكمـــن المـــبالغة ، فعلى المعنى الأول تمنح الصورةُ المتلقي دلالةحـــركة الإحكـــام والســـيطرة بينما تمنح الأخرى دلالة حركة الاستيلاء والاستئصال .

وفي السياق نفسه يأتي ملمح'' آخر من ملامح البُعد الحـــركي في طـــــريقة " إبليس " في إغواء بني آدم كما قال تعالى :

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِب عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ (١)

تمثـــّلت حال الشيطان في تسلطه على من يغويه من ذرية آدم بحركة الفارس الذي يصيح بجنده للهجوم المباغت على الأعداء { كأن مغوارًا وقع على قوم فصـــوّت بهم صوتـــًا يزعجهم من أماكنهم ، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجّالـــة حتى استأصلهم } (٢) وقد جمع في السياق بين البُعد الحركي وهو بَيِّن'' والبُعد الصوتي في الجلبة التي يحدثها إغواءً واستفزازًا .

وتـــبدو المبالغة في رصده لهذه المعركة الصاخبة كل ما يستطيع جمعه من عتاد مشاة وخيالة على طريقة المبارزات والمعارك القتاليـــة الشرســـة حيث { يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبرة فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخـــيل ، وأحاطت بهم الرجال } (٣) وبَيِّن'' تمثـــّل الصورة في استجماع الحشـــــود ، وإحداث الجلبة الصاخبة قصدًا للغواية والاستفزاز ومكيـــــدة لبني آدم .

---

(١) الإسراء/ ٦٤ ، " أجلبتُ عليه : صحتُ عليه بقهر " المفردات / ١٩٨

(٢) روح المعاني ١٥ / ١١٢

(٣) في ظلال القرآن ٤ / ٢٢٣٩

ومنه حركة الانسلاخ للدلالة على المبالغة في التبري من العلم والإيمان .

كما في قوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاه آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعه الشيطانُ فَكَان من الغاوين ﴾ (١)

التعبير عن الترك والإعراض عن الآيات بالسلخ فيه شدة وجهد ومشقة إنه انسلاخ الحي عن أديمه اللاصق بكيانه أو بتعبير الصاوي : { كما تخرج الحية من جلدها وهو بلعم بن باعوراء } (٢) ولا يخفى أن في السياق مبالغتين الأولى في التعبير عن الانفصال بالانسلاخ والأخرى في ذمه حيث كان عالمًا عظيمًا ثم صار الشيطان من أتباعه وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشيطانُ ﴾ .

---

(١) الأعراف/ ١٧٥ ، " السلخ : نزع جلد الحيوان ، يقال : سلخته فانسلخ ، وعنه استعير سلخت درعه : نزعتها " المفردات / ٤١٩

(٢) الصاوي على الجلالين ٢ / ٩٤

ومـــنه حـــركة " الأيدي " المُصوبَّة تجاه " الأفواه " حيث تمنح المتلقي حفزًا خلاَّقــًا لمخيلته ، ولفتــًا ذهنيــًا لاستكشاف ما وراء الحركة من إشارةٍ كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكم نبأُ الَّذين من قبلكم قوم نوح وعادٍ وثمود والَّذين مِنْ بعدِهم لا يعلمهم إلا الله جاءَتهم رسلهم بالبينات **فردوا أيديهم في أفواههم** وَقالوا إنَّا كَفَرْنا بما أُرســلتم به وإنَّا لفي شكٍ مِمَّا تدعوننا إليه مريب ﴾ (١)

أيـــدي مَنْ ؟ وأفواه مَنْ ؟ .. هذا أولاً ، وثانيــًا : ما نوع هذه الإشارة هل هي غيظ'' من الرسل ؟ أم تسكيت'' لهم ؟ أم ضحك واستهزاء منهم ؟!

ومن هنا اختلفت تأويلات المفسرين على أقوال متعددة خلاصتها خمسة هي :

١- قال ابن مسعود : أيدي أنفسهم في أفواه أنفسِهم ليعضوها غيظــًا مما جات به الرسل كما قال تعالى : ﴿ عَضُّوا عليكم الأناملَ من الغيظِ ﴾ آل عمران ١١٩ (٢).

٢- أنهـــم ردوا أيديهـــم فـــي أفـــواه أنفسهم إشـــارة على الأنبياء بالسكوت (٣).

٣- أنهـــم ردوا أيديهـــم فـــي أفواه الأنبيـــاء تسكيتــًا لهم ، وردًا لقولهم (٤).

---

(١) إبراهيم / ٩

(٢) انظــر الــبحر المحـيط ٥ / ٣٩٧ ، التســهيل ٢ / ١٣٨ ، البيضـــاوي ١ / ٥١٤ ، الصاوي على الجـــلالين ٢ /٢٣٦ .

(٣) انظر التسهيل ٢ / ١٣٨ ، البحر المحيط ٥ /٣٩٧ .

(٤) انظر التسهيل ١٣٨/٢ ، البحر المحيط ٥ / ٣٩٧ .

٤- ردوا أيديهم في أفواههم ـ ضحكًا واستهزاءً من الرسل [١]

٥- قال مقاتل : الضميران عائدان على الرسل أي : أخذوا أيدي الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم [٢].

ولا ريب أن هذا من إعجاز نظم القرآن ، ففي الدلالة العامة والغرض حمَّال أوجه وفي عود الضمير في " أيديهم " ، و " أفواههم " أيضًا حمَّال أوجه حتى قال ابن عاشور عن هذا السياق : { فلعله من مبتكرات القرآن } [٣] ومن هنا اختلف المفسرون اختلافًا بيِّنًا ولم يكن ثَمَّ ترجيح'' بارز '' يمكن أن يُعوَّل عليه .

وتبدو المبالغة في بلوغ السياق الغاية في هذا الإعجاز اللافت المنبعث من تلك الحركة المتحملة لجملة هذه التأويلات .

ومنه التعبير عن عَوْد الكافرين إلى الباطل بالنكس على الرأس كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا على رُءوسِهِم لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤلاءِ يَنْطِقُون ﴾ [٤]

وهو تصوير للذي يرتطم في غيه ، كأنه منكوس على رأسه ، وهي أقبح هيئة للإنسان ، فكأن عقله منكوس أي مقلوب لانقلاب شكله ، وجعل أعلاه أسفله ، فرجوعهم إلى أنفسهم كناية عن استقامة فكرهم ، ونكسهم كناية عن مجادلتهم ومكابرتهم ، ويحتمل أن يكون نكسوا على رءوسهم كناية عن تطأطؤ رءوسهم وتنكيسها إلى الأرض على سبيل الخجل والانكسار مما بهتهم به إبراهيم من قول الحق ، ودفعهم به فلم يطيقوا جوابًا [٥].

وتكمن المبالغة في إحداث هذه الحركة المنعكسة الدالة على قبح الهيئة ، ومدى الانتكاس المزري ، والارتكاس المشين الذي يشي بغاية الاعوجاج وقمة الانحراف .

---

(١) انظر البحر المحيط ٥ / ٣٩٧ .

(٢) نفسه ٥ / ٣٩٧ .

(٣) التحرير والتنوير مجلد ٧ ١٣/١٩٦ .

(٤) الأنبياء/ ٦٥ ، " النكس : قلب الشيء على رأسه ، ومنه نُكِس الولد : إذا خرج رجله قبل رأسه " المفردات /٨٢٤ وقال ابن عاشور : { النكس : قلب أعلى الشيء أسفله وأسفله أعلاه ، يُقال : صلب اللص منكوسًا أي مجعولاً رأسه مُباشرًا للأرض ، وهو أقبح هيئات المصلوب } التحرير والتنوير مجلد ٨ ١٦/١٠٣

(٥) انظر البحر المحيط ٦ / ٣٠٣

ومن نماذجه ما يصور حركة الانقلاب على الوجه كما في قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ (١)

حقيقته أنه لا يدخل في الدِّين دخول مُتمكّن وإنما يدخل على سبيل الاضطراب والتذبذب ، فهو ابدًا قلق ن مهتز ، ضعيف ، لأول فتنة ينقلب على وجهه وهيئته الأولى " على حرف " تلك المتأرجحة تمهد لهذا الانقلاب السريع .

وتبدو المبالغة في تلك الصورة الحيّة التي يتمثلها المتلقي حتى لتُصبحُ كأنها مُشاهدة أمام عينيه تعكس في شفافية مدى الخَوَر الذي يعانيه والخواء الذي يعتوره .

وثمة لوحة فنية ذات قدرة على حفز مخيلة المتلقي تمثل الحركة الكبرى أعظم تمثيل ، وهي حركة يأجوج ومأجوج المائجة كالبحر من شدة اختلاطهم واضطرابهم كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ **يَمُوجُ فِي بَعْضٍ** ﴾ (٢)

صورة حركية مُتموِّجة تبين طريقة خروج " يأجوج ومأجوج " مزدحمين ازدحامًا شديدًا ، مضطربين غاية الاضطراب ، فنشأ من الازدحام الممزوج بالاضطراب صورة أمواج البحر المتلاطمة ؛ إذ دخل بعضهم في بعض ، فصار فسادهم قاصرًا عليهم ودُفِع عن غيرهم .

وَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا ٭٭ إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

لأنهم لما فقدوا ما اعتادوه من غزو الأمم المجاورة لهم رجع قويُّهم على ضعيفهم بالاعتداء (٣)

ومنه التعبير عن كمال الإحاطة والمبالغة في التعميم كما في قوله تعالى :

الحج /١١ ، " حرف الشيء : طرفه ، وجمعه : أحرف وحروف ، يقال : حرفُ السيف وحرف السفينة ، وحرف الجبل ، وحروف الهجاء : أطراف الكلمة " . المفردات /٢٢٨

(١) الكهف ٩٩ ، " الموج : ما ارتفع من الماء فوق الماء ، الفِعل ماج الموجُ ، والجمع أمواج ، وقد ماج البحر يموج موجًا ومَوَجانًا ومُؤوجًا ، وتموَّج : اضطربت أمواجه . وموج كل شيء ومَوَجانه : اضطرابه .. والناس يموجون ، وماج الناس : دخل بعضهم في بعض " لسان العرب مادة { م . و . ج } .

(٢) انظر التحرير والتنوير مجلد ٨ ١٦/٤٠

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (١)

إنهـا حقـيقة قد لا يلتفت إليها الإنسان .. فهو يرى تحركـًا هنا في الأرض للحـيوان .. وطـيرًا هناك في السماء .. وزحفـًا لتلك .. وركضًا لـذاك حركات متتابعة لا يخلو منها الكون ، بَيْد أن الإنسان قد لا يتخيل أنها تنتظم وتتجمع في أمم .. لها سماتها ، وخصائصها ، وتنظيماتها { إن المنهج القرآنـي ـ في هذا النموذج ـ لا يزيد على أن يربط الفِطرة بالوجود ، وأن يفتح النوافذ بين الوجود والفطرة ، وأن يدع هذا الوجود الهائل العجيب يوقع إيقاعاتـه الهائلـة العميقة في الكيان الإنساني . إنه لا يقدم للفطرة جدلاً لا صوتيـًا ذهنيـًا نظريـًا . ولا يقدم لها جدلاً كلاميـًا .. ولا يقدم لها فلسفة عقلـية أو حسـية ، إنما يقدم لها هذا الوجود الواقعي ـ بعالميه عالم الغيب وعـالم الشهادة ـ ويدعها تتفاعل معه وتتجاوب ، وتتلقى عنه وتستجيب ، ولكن في ظِل منهجٍ ضابطٍ لا يدعها ـ وهي تتلقى من الوجود ـ تضل في المتاهات والدروب } (٢) .

والمقصـود بـيان إحاطة علم الله ـ تعالى ـ بكل شيء ، وتدبير كل شـيء ، وتتـبدَّى دلالـة المبالغة المؤازرة لهذه الغاية في سياق قوله " في الأرض " وقولـه " يطير بجناحيه " كما قال الزمخشري : { وما معنى زيادة قولـه " في الأرض " و " يطير بجناحيه " (قلت) معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطـة كأنـه قيل وما من دابة قط في جميع الأرضين السبع ، وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالهـا غير مهمل أمرها (فإن قلت) فما الغرض في ذكـر ذلك (قلت) الدلالة على عظم قدرته ولطف علمه ، وسعة سلطانه ، وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس المتكاثرة الأصناف وهو حافظ'' لما لها وما عليها مهيمن على أحوالها لا يشغله شأن'' عن شأن وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان } (٣) .

---

(١) الأنعام ٣٨

(٢) الظلال ٢ / ١٠٨٥

(٣) الكشاف ٢ /١٢، ١٣

ومنه المبالغة في الحيرة كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنا وَنُرَدُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا اللهُ كالذي استهوته الشياطينُ فـي الأرضِ حيرانَ له أصحابٌ يَدْعُونه إلى الْهُدَى ائتنا قُلْ إنَّ هُدَى اللهِ هو الْهُدَىٰ وَأُمِرْناَ لنسلمَ لِرَبِّ العَالَمِين ﴾ (١)

نحـن في هذا النموذج أمام شخص تائه حيران ، لم يحدد له اتجاهًا، ولم يختر له وجهة ، فحركته حركة مضطربة ، قد احتوشته الشياطين وألقت به في المهامه والمفاوز المهلكة ، تدعوه إلى النكوص والارتداد وفي الوقت نفسه ثمة رفقة أخرى مؤمنة تدعوه إلى الإيمان والحق المبين وهنا يبرز البُعد النفسـي الذي يتوزعه ، فهو مشتت .. مذبذب .. مُنزعج يُقدِّم رجلاً ويؤخر أخـرى ، فالصـورة مُوَّزعة بين هذا الحائر وبين الشياطين الفاتنة من جهة والـرفقة المؤمنة من جهة أخرى ، وهو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وهو مَـثَل ضُـرب لمـن ضلَّ عن الهدى وهو يُدعى إلى الإسلام فلا يُجيب . وحيران " صفة مشبهة " على وزن " فعْلان " بَيْد أنها حوت دلالة المبالغة في كـون الفريقيـن يـتجاذبانه ، كُلٌ يستميله ويدعوه .. جند الشيطان وجند الرحمـن ، وهو مُفَرَّق الإحساس ، موزَّع الميل بين الهداية والضلال .. لا يدري .. لا يَعْرِفُ .. لا يهتدي .

وقريـبٌ مـن هذه الصورة قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَه يَشْرَحْ صَدْرَه للإسلامِ وَمَن يُرِد أن يُضِلَّه يَجْعل صَدْره ضيِّقًـا حرَجًا كأنما يَصَّعَّدُ فـي السـماءِ كذلـك يَجْعَل اللهُ الرِّجسَ على الذين لا يُؤْمِنون ﴾ (٢) بَيْد أن الحركة ــ هنا ــ في السماء ، وليست في الأرض .

والمعـنى : فمن يرد الله شقاوته وإضلاله يجعل صدره ضيِّقـًا شديد الضـيق لا يتَّسع لشيء من الهدى ، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان ، وهو فـي هـذا شبيهٌ بمن يحاول أمرًا غير ممكن ، عزيزًا غير مقدور تمامـًا كـالذي يحـاول الصعود إلى السماء وهو عليه مُحال { لأن صعود السماء مَثَـلٌ فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة ، وتضيق عنه المقدرة } (٣) .

---

(١) الأنعام/ ٧١

(٢) الأنعام/ ١٢٥

(٣) الكشاف ٢ / ٣٨

وهو مَثَل'' تصوُّري محال لحالة الضيق الذي وصل إليه هذا الضال ، ومن هنا فإن مدار المبالغة على أمرين : الأول : الضيق الشديد الذي اعتوره المشابه لضيق من يصعد في السماء ، الثاني : الصعود نفسه ضرب'' من المبالغة ، لأنه أمر'' غير مقدور لدى جمهور المتلقين آنذاك ، وإن أضحى اليوم أمرًا ميسورًا بالاستعانة ببعض التقنيات الحديثة من جهة الصعود ذاته [1] لكنه مازال أمرًا شاقًا من جهة الضيق ومن هنا يستعينُ الصاعدون اليوم { بأنابيب أكسجين } دفعًا للضيق وطردًا للاختناق ، وهم معرضون في أي لحظة للتعرض لهذا الحرج وذاك الضيق .

واللافت الإعجازي في السياق أن العلم الحديث أثبت أنه كلما صُعد إلى أعلى قلّت نسبة (الأكسجين) وتعرض الإنسان إلى الضيق والاختناق فالذين يعيشون في أعالى الجبال هم أقل حصولاً على (الأكجسين) من الذين يعيشون في السهول والوديان ، كما أن اللافت في بنية " يصعَّد " ورودها في السياق بالتشديد [2] الدال على شدة الصعود وفرط المعاناة .

ومنه المبالغة في الركونِ إلى الأرض وترك الجهاد في سبيل الله كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمنوا مَالكم إذا قِيل لكم انفِرُوا في سبيلِ اللهِ اثَّاقلتم إلى الأرض أرضِيْتم بالحياةِ الدنيا من الأخرة فَمَا مَتاعُ الحياةِ الدُّنيا في الآخرةِ إلا قليلٌ ﴾ [3]

توبيخ للمؤمنين على ترك الجهاد : مالكم إذا قيل لكم اخرجوا لجهاد العدو تباطأتم وتثاقلتم ، مائلين إلى الدنيا وشهواتها ، كارهين مشاق السفر ومتاعبه ؟

إن البُعد الحركي المتمثل في التبطاؤ في " اثَّاقلتم " يرسم البُعد النفسي عند البعض ، نظرًا لمشاق هذه الغزوة " تبوك " المتبلورة في شدة الحر ،

---

(١) إلى مسافات معينة وإلا فثمة طبقات جوية لا يمكن اختراقها والصعود إليها بأحدث التقنيات ، لأنها تتعرض لدرجات ضغط جوي عالٍ لا يمكن احتمالها .

(٢) هذه قراءة حفص وقرئ " يصعد " من غير تشديد . انظر الكشاف ٣٨/٢ ، التسهيل ٢٠/٢

(٣) التوبة/ ٣٨

وبُعْد المسافة ، وقلة الزاد ، وضعف العُـدَّة .... الخ فبدت هــــذه الروح " التثاقلـية " .. ثقـل الأرض ومطامعها وزخارفها وثِل الخوف على الحياة والمصالح والأمتعة ، أضِفْ إلى هذا ثقل الدعة والراحة .. وكأنها قوة جاذبة تشـدهم إلـيها بعيدًا عن تلك الرحلة الشاقة في هذا الوقت المخصوص على الـرغم أنهـم ــ في الأصل ــ قوم مُحبون للقتال والتضحية ، وهنا تكمن المـبالغة فـي وصـولهم إلى هذه الحالة المتراخية مع حبهم الشديد للشهادة والجهـاد ، وتكمـن ثانية في محاولة التملُّص من ثقل هذه الجاذبية للأرض والنهوض لإجابة داعي الله للجهاد في سبيل الله ، وكأن كل واحد منهم ينتزع نفسه انتزاعــًا .

ومنه الفرار لعـظَم الهَول كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرءُ من أخيه * وَأمِّه وأبيه * وَصَاحِبَته وَبنِيه * لِكلِّ امــرئٍ مِنْهم يومئـــذٍ شأنٌ يُغنيه ﴾ (١) .

يفر من كل هؤلاء الذين تربطهم به وشائج ، وروابط لا تنفصم بَيْد أن هول القارعــة يُبدِّد هذه الروابط ، ويمزق تلك الوشائج تمزيقــًا ، لكن لماذا جاء السـياق بهـذا الترتيب بدءًا بالأخ وانتهاءً بالأبناء ؟! قال ابن جُزي : { ذكر فــرار الإنسان من أحبابه ورتبهم على ترتيبهم في الحِنو والشفقة فبدأ بالأقل وخــتم بالأكـثر ، لأن الإنسان أشد شفقةً على بنيه من كل من تقدم ذكره ، وإنمــا يفر منهم لاشتغاله بنفسه ، وقيل إن فراره منهم لئلا يطالبوه بالتبعات والأول أرجــح وأظهر ، لقوله " لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه " } والذي يرجح قول ابن جزي ما جاء على لسان الأنبياء يومئذٍ " نفسي نفسي " (٢)

وبَيِّن أن السياق جاء متدرجــًا من الأقل إلى الأكثر ، فلم يعدل هذا الهول أي تعلــُّق أو عاطفة ، ولم يثبت مع هذا الفزع أي شفقة أو حَدَب ، فالمشاهد مفــزعة ، والأهــوال متتابعة ، والأحوال متلاحقة ﴿ لتــَركَـبُنَّ طبقــًا عن طَبَقٍ ﴾ (٣) .

---

(١) عبس /٣٤-٣٧

(٢) التسهيل ٤ / ١٨٠ ونفسي نفسي

هذا جزء من حديث في الشفاعة أخرجه البخاري ومسلم

(٣) الانشقاق/ ١٩

obeikandi.com

عندئذٍ لا ينظر المرء إلا إلى نفسه ، ولا يعتني إلا بشأنه وهنا تكمن المبالغة في التولي والإدبار والفرار من كل المقربين .. ليت الإنسان يفكّر ـ جدّياً ـ في هذا الموقف اللافت المُعبِّر ، فهو ذاك الشخص الذي طالمَا دفعَ حياته ثمناً لحياة أولاده وأهله ، وأورد نفسه المهالك من أجلهم ولإسعادهم .. وكم ضحَّى بالغالي والرخيص .. في الدنيا .. أما الآن فهو يهرب منهم ويفر .. ضاعت كل التضحيات .. تلاشت كل الوشائج .. تصدَّعت كل المودات تحت قرع الصاخة ، ووقع القارعة ، وهول الطامة .. يومذاك تنفصم كل العُرَى إلا عُرى الإيمان والاعتصام بالله تعالى .

ومنه المبالغة في حَمْل الأوزار كما في قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون * وليحملنَّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليُسألنَّ يوم القيامة عمَّا كانوا يفترون ﴾ (١) .

حيث قال الكافرون للمؤمنين وفقاً للتصور العربي القبلي في احتمال العشيرة للديات والتبعات : اكفروا كما كفرنا ، واتبعوا ديننا ونحن نحمل عنكم الإثم والعقاب ، إن كان ثمة عقاب ، وهم في الواقع كاذبون لأنه لا يحمل أحد" وزر أحد إلا المضلين ـ وهم كذلك ـ فسيحملون أوزارهم وأوزار من أضلوهم دون أن ينقص من اوزار أولئك شيء ولعل مدار المبالغة في حَمْل هؤلاء المضلين أوزاراً إضافية على ما يحملونه من أوزارهم هُمْ ، وكأنهم أرادوا ـ إظهاراً ـ للشهامة والتحمل أن يحملوا أوزار المؤمنين إن كفروا ، فإذا بهم يحملون أوزاراً ـ فعلاً ـ إضافية ، لكنها ليست أوزار المؤمنين بل هي أوزار الذين أضلوهم وساعدوا على فتنتهم وشركهم .

---

(١) العنكبوت/ ١٣

ب ـ البُعد الصـــوتي

غنـــيٌّ عـــن البيان أن ُأنوِّه إلى أن كل عنصر لغوي واقع في الصورة الكلــية بما فيه من ُبعد من الأبعاد ، إنما يمثل أداة من أدوات بنائها ، دون قصــد أن ينحصـــر التصـــوير في هذه الأدوات وحدها ، ولا شك أن البُعد الصـــوتي يمـــثل عنصرًا لا غناءَ عنه من عناصر كمال الصورة وجمالها ، فربما تُدْرك الصورة عبر الصوت في الوقت الذي لا يستطيع عنصر آخر إدراكــه ومــن نماذجه قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ من السماءِ فيه ظلماتٌ ورعــدٌ وبرقٌ يَجْعَلون أصابِعَهم في آذانِهم من الصَّواعق حَذَر الموتِ والله مُحـيطٌ بالكافِرين * يَكادُ البرقُ يَخْطَف أبْصَارهم كُلَّما أضاء لهم مَشوا فيه وإذَا أَظْلَم عليهم قَامُوا ولو شَاء الله لَذَهبَ بِسَمْعهم وَأبْصَارهم إن الله على كل شيء قديرٌ ﴾ (١)

إنه مَثَــلٌ ُضرب للمنافقين في حيرتهم وترددهم كمثل قومٍ اصابهم مطر أظلمــت له الأرض ، وأرعــدت له السماء ، وقد ُصحب بالبرق والصواعق وهــذا هــو الملمح الأول من هذه الصورة الكلية في رسم الحيرة والضلال والتخبط لدى المنافقين ، وبَيِّن خيـــط الصوت فـــي " الرعـــد " و " البرق " وهما ُيمَثِّلان جانب الخوف والفزع لديهم ، بينمـــــا ُيشكِّــل " المطـــر " جانـــب الإيمـــان (٢) ، الملمـــح الثاني من الصورة " يجعلون أصـــابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين " وهو بُعـــد حركي يعكس فرط الدهشة والفزع حيث يضعون رءوس أصابعهم في آذانهـــم لدفع خطر الصواعق وعُبِّر عنه بـــ " يجعلون أصابعهم " مبالغة في الخوف وخشية الموت من الصواعق والله ـــ عز وجل ـــ محيطٌ بهـــم من كل جانب .

الملمح الثالث قوله : ﴿ يكادُ البَرْقُ يَخْطَف أَبْصَارهم ﴾ للمبالغة في شدة البرق وقوته للدرجة التي يكاد فيها أن يُذهب بأبصارهم . ومعلوم أن البرق يمتزج فيه بُعدان اللوني والصوتي مما يكثف دلالته في الصورة ثم يأتـــي

---

(١) البقرة / ١٩ ، ٢٠

(٢) انظر التسهيل ٣٩/١

الملمـح الأخير ويتضح فيه البُعد الحركي في قوله : ﴿ كُلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ فـهُم كلما أنار لهم البرق طريقهم مشوا في ضوئه وإذا اختفى أو خبا لمعانه وقفوا عن السير ، فهم هكذا دواليك : حركة ثـم توقـف .. ثم حركة .. خوف متكرر ، وفزع متتابع ، وهم في الأصل جهـلاء إذ لو شاء الله لزاد في قصف الرعد فأصمهم وذهب بأسماعهم فالله علـى كـل شيء قدير وهو المفهوم من قوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾ (١) .

ومـنه قولـه تعالى : ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقـًا وهي تفور * تكاد تميَّز من الغيظ .. ﴾ (٢) .

فـإن الكافريـن إذا طرحوا في جهنم كما يُطرح الحطب في النار سمعوا لها صوتـًا منكرًا فظيعـًا مثل صوت الحمار ، وهذا هو البُعد الصوتي المخيف الـذي ترتجف منه قلوب الظلمة ، وترتعد منه أفئدة الكافرين ، ثم أضف إلى ذلك " هيئة الفوران " شكلاً وصوتـًا ، إذ تغلي النار بأهلها كغلي القدور بما فيها ، ثم انظر إلى الغيظ الذي بلغ منتهاه ، فهي تكاد تتقطع من شدة غيظها على الكافرين ، وهو ملمح للمبالغة في الغيظ لا يُنكر قال الزمخشـــري : { جعلـت كالمغـتاظة عليهم لشدة غليانها بهم ويقولون فلان يتميز غيظـًا ، ويتقصف غضبـًا ، وغضِبَ فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء إذا وصـفوه بالإفـراط فـيه } (٣) ، ولاشك أن البُعد الصوتي كثف دلالة الصـورة وهـيَّـأ المتلقي لتصور مدى تأثر جهنم نفسها بالخطأ الفادح الذي ارتكـبه المشركون ، وكم هي مستعدة لردع هؤلاء ، فهي مخلوقة حية تكظم غيظها الذي ملأ جوانحها حتى لتكاد تتمزق منه حنَقـًا على الكافرين .

وتسـمع كلمة "**يصطرخون**" في قوله تعالى :﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يُخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور *

---

(١) البقرة / ٢٠

(٢) الملك /٧ ، ٨

(٣) الكشاف ٤ / ١٢٢

obeikandi.com

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ (١) .

فيخيلُ إليك جرسها الغليظ ، غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان ، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة ، وتلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ (٢) قال الزمخشري :{ " يصطرخون " يتصارخون : يفتعلون من الصراخ وهو الصياح **بجهد وشدة** .. واستعمل في الاستغاثة لجهد المستغيث صوته } (٣) ولعلك تلمح المبالغة في لفظ " يصطرخون " إذ هو أبلغ من " يصرخون " فاللفظة الأولى تحمل دلالات الشدة في الصراخ والغاية في رفع الصوت وبيان الاستغاثة فزيادة المبنى ــ كما هو معروف ــ زيادة للمعنى .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ * فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ (٤) .

إنه مشهد يتضح فيه البُعد الصوتي " فتنادوا " " يتخافتون " ممزوجًا بالبُعد الحركي " فانطلقوا " " وغدوا على حرد قادرين " فقد تعاهد أهل هذه الحديقة على حركة خفية كحركة الأشباح في الظلام ويتنادون بطريقة غير مُلفتة لأحدٍ من الفقراء والمساكين ، فكانوا يتخافتون ويتهامسون خشية أن يدخلوا عليهم ، فيأخذون من الثمار ، وقد ارادوا حرمانهم فحرمهم الله وأحرق حديقتهم فلم يجدوا بها ثمرة . وبدا ملمح **المبالغة** واضحًا في شدة التخفي وعمق التبري من الفقراء والتنصل من المساكين .

---

(١) فاطر/ ٣٦ ، ٣٧

(٢) انظر التصوير الفني في القرآن ــ للأستاذ سيد قطب ــ الطبعة الحادية عشرة ــ دار المعارف ــ ١٩٩٤م /٧٩ .

(٣) الكشاف ٣ / ٢٧٧

(٤) القلم/ ٢١ – ٢٧

ومن المناداة الصوتية اللافتة مناداة أصحاب الجنة أصحابَ النار ، ومناداة أصحاب النار أصحاب الجنة في ثنائية تطابقية صوتية مُعبِّرة عن مدى الحسرة والوبار على الكافرين ، والفوز والنجاة للمؤمنين وذلك في ملمحين بارزين هما :

الأول : مناداة أصحاب الجنة أصحاب النار في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النارِ أن قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقّاً فهل وَجَدْتم مَا وَعَدَ رَبُّكم حقاً قالوا نَعم فأذَّنَ مُؤذن'' بينهم أن لَعْنَةُ الله على الظَّالمين ﴾ (١).

نحن أمام صورة من صور يوم القيامة ، ومشهد حواري بَيِّن يصف مدى التخاصم بين الفريقين ، وعمق التمايز بينهما ، ويَبْرزُ الجانب الصوتي كاشفاً لمكانتهما حيث يُظهر في هذا الملمح جوانب عظمة أهل الجنة وثقتهم بموعود ربهم ، فيسألون أصحاب النار سؤال التبكيت والإيلام ﴿ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ﴾ فقال أهل النار بصوت كله حسرة وألم وندم " نعم " قال الزمخشري : { وإنّما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم وشماتة بأصحاب النار ، وزيادة في غمهم ولتكون حكايته لطفاً لمن سمعها } (٢).

وواضح'' أن هذا البُعد قام على المناداة ، والسؤال والإجابة وكلها مشارب صوتية ، فلقد أرجفهم صوت المناداة من أصحاب الجنة وأخجلهم وأركسهم السؤال ، وكانت إجابتهم تعسة مُحزنة ، ومما عمَّق هذا اللون سماع صوت ينادي بين الفريقين بأن لعنة الله على كل ظالم ﴿ فأذَّن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ﴾ (٣).

الآخر : مناداة أصحاب النار أصحاب الجنة في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النارِ أَصْحَاب الْجَنَّة أن أَفِيضوا عَلَينا من الماءِ أو مِمّا رزقكم الله قَالوا إنّ الله حرّمهما على الْكَافرين ﴾ (٤).

---

(١) الأعراف/ ٤٤

(٢) الكشاف ٢/٦٣

(٣) الأعراف/ ٤٤

(٤) الأعراف/ ٥٠

هــذا هــو الوجه الآخر المقابل ، الأوَّل مثل أهل الإيمـــان ، موقف العزة ، والثقة والأمن ، وهذا الفريق " أصحاب النار " ينطق ، فينادي مناداة المُــذل المنــتكس ، ويطلب طلب المخذول المرتكس " أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله " أي أغيثونا بشيء من الماء لنسكن به حرارة النار والعطش ، أو مما رزقكم الله من غيره : الأشربة والأطعمة فقد قتلنا العطش قــال الزمخشــري : { إنما يطلبون ذلك مع يأسهم من الإجابة إليه حيرةً في أمــرهم كما يفعل المضطر الممتحن } [١] فكانت الإجابة القاطعة ﴿ إنَّ الله حَــرَّمهما على الكافرين ﴾ قال ابن عباس : إنه لما صار أصحاب الأعراف إلــى الجــنة طمع أهل النار في الفرج بعد اليأس فقالوا يارب لنا قرابات من أهــل الجــنة فأذن لنا حتى نراهم ونكلمهم فينظرون إليهم وإلى ماهم فيه من النعيم فعرفوهم ، ونظر أهل الجنة إلى قرابتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم قد اسودَّت وجوههم وصاروا خلقــاً آخر ، فنادى أصحاب النار أصحاب الجنة بأســمائهم وأخــبروهم بقــراباتهم فينادي الرجل أخاه ، فيقول : يا أخي قد احترقت فأغثني . فيقول : إن الله حرَّمهما على الكافرين [٢] .

ومــنزع المــبالغة في زيادةٍ تكريمِ المؤمنين بسكنى الجنة وتحدثهم بهذا من منطلق الثقة بالله تعالى : ﴿ لِلَّذين أَحْسَنوا الحُسْنى وَزِيَادةٌ ﴾ [٣] .

وفــي المقابل : في إهانة أهل النار بما فيها من أهوال وبما عجز عنه أقرب الأقربيــن فــي إيصال أدنى خير إليهم : ماء .. أو شراب ، وذلك بما جنته أيديهم ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا وغرَّتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ [٤] .

ومــنه الصــوت " المُتعالــي " صوت مناداة " فرعون " في قوله تعــالى : ﴿ وَنَــادَى فِــرْعون في قومه قالَ يا قوم أليس لِي مُلك مِصْر وَهذِه الأنهارُ تَجْرِي من تحتي أفلا تُبْصرون ﴾ [٥] .

---

(١) الكشاف ٦٥/٢

(٢) انظر البحر المحيط ٤ / ٣٠٦ ، ٣٠٧

(٣) يونس/ ٢٦

(٤) الأعراف/ ٥١

(٥) الزخرف/ ٥١

هـذا الصـوت المتعالي سواء منه أم من منادٍ أمره أن ينادي في الناس إنه صـوت الغلـو في التبجح ، والإسراف في الافتخار قال بن جُزي : { قصد بذلـك الافـتخار علـى موسى ، ومصر هي البلد المعروف وما يرجع إليه ومنتهى ذلك من نهر إسكندرية إلى أسوان بطول النيل (وهذه الأنهار تجري من تحتي) يعني الخلجان الكبار الخارجة من النيل كانت تجري تحت قصره وأعظمهـا أربعـة أنهـار : نهر الإسكندرية وتنيس ودمـياط ، ونهـر طولون } [١] .

لقد استطاع خداعهم بهذه الأنهار الجارية المشهودة ، يبهرهم ويستخفهم وإلا لو كان فيهم رجل رشيد لقال إن الذي ملك السموات والأرض وخلق الجبال والـنجوم وأنبـت النـبات وأنزل الأمطار لهو أولى بالعبادة والشكر وأخلق بـالحمد والثناء من هذا المُخادع المُغـرَرُ به لكن القوم استعبدتهم شهواتهم وأعمـتهم أهواؤهم وألجمهم الخوف من هذا الفرعون الجبار لذا قال عزَّ من قـائل : ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قومـًا فاسقين ﴾ [٢] .

وأخيرًا من نماذجه قوله تعالى : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ﴾ [٣] .

وصـف سـبحانه القرآن بالنطق مبالغة في وصفه بإظهار البيان ، وإعلان الـبرهان تشـبيهـًا باللسـان الناطق في الإبانة عن ضميره ، والكشف عن مستوره [٤] .

قـال ابن عاشور : { النطق مستعار للدلالة ، ويجوز أن يكون نطق الكتاب حقـيقة بأن تكون الحـروف المكتوبـة فيه ذات أصوات ، وقـدرة الله لا تحد } [٥] . وفي المفردات : { فإن الكتاب ناطق لكن نطقـه تدركـه العين

---

(١) التسهيل ٤/٣٠ ، وانظر الكشاف ٣ / ٤٢٢

(٢) الزخرف/ ٥٤

(٣) المؤمنون/ ٦٢

(٤) انظر تلخيص البيان / ١٩٨

(٥) التحرير والتنوير مجلد ٩ ٧٩/١٨

كمـــا أن الكلام كتاب لكن يدركه السمع }[١] وسواء أكان النطق حقيقة أم مجـــازًا فهـــو دال" على الظهور والبيان ، دال على الوضوح والجلاء فهو قـــائم" بالصـــدق ، لا يوجـــد فـــيه ما يخالف الواقع ، ويؤازر هذا الموطن موضـــعان آخـــران في كتاب الله هما : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[٢]. وقـــوله تعـــالى : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ﴾[٣].

ولا يخفـــى مـــا فـــي هذه المواضع من دلائل للنطق ، منها ما ذكرته وهو الوضـــوح إضـــافة إلى أن كل إنسان سيجد ما عمل من عملٍ مسطورًا بلا زيادة أونقصان كما يمكن استنباط أن كل إنسان سيجد لغة كتابه هي لغته التي يُحسنها دون استعجام فهي من دلالات النطق والقص والله أعلم .

(١) المفردات / ٨١٢

(٢) النمل/ ٧٦

(٣) الجاثية/ ٢٩

جـ ـ البُعد اللـــوني

تمـثل الدلالــة اللونــية أهمية ً في رسم الصورة الكلية من حيث بروزها ، واحتلالها كثافة رمزية تتكثف من خلال " الرؤية " عبر حاسة البصر لتسهم فــي كشــف أبعاد الصورة { ومن ناحية الصور فإنه يمكن تصنيفها بحسب الحاسـة التــي تــتجه إلــيها كل صورة سمعـًا أو بصرًا (صور الألوان والأشكال) أو ذوقــًا أو شمــًا أو لمسًا } (١) .

وممــا لا ريــب فيه أن كل لون له دلالته الخاصة التي تتجلى في السياق ، وتُظهــرُ من خلال اللغة والوجدان والفكر دلالات معينــة يمكــن أن تُسهم بقدرٍ كبيرٍ في جلاء النص والكشف عن جمالياته .

ومنه قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يتبيَّن لَكُم الخَيْطُ الأبيضُ من الخَيْطِ الأسودِ من الفَجْرِ ﴾ (٢) .

شُبِّه أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق وما يمتد معه من غبش الليل بخيطيــن أبــيض وأسود ، واكتفي ببيان الخيط الأبيض بقوله من الفجر عن بيان الخيط الأسود لدلالته عليه وقد أخذ جماعة من الصحابة هذا الأمر على حقيقــته فإذا ارادوا الصوم ربط أحدهم في رجــله خيطــًا أبيض وخيطــًا أسود ، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبينا له إلى أن نزل قوله تعالــــى : " من الفجر " فعلموا أنما عني بذلك الليل والنهار (٣) .

وأخرج الصورة من الاستعارة إلى التشبيه قوله تعالى : " من الفجر " كقولك رأيت أسدًا من زيد فلو لم يذكر " من زيد " كان استعارة ، وكان التشبيه هنا أبلــغ مــن الاستعارة ؛ لأن الاستعارة لا تكون إلا حيث يدل عليها الحال أو الكــلام ، وهنا لو لم يأتِ من الفجر لم يعلم الاستعارة ، ولذلك فهم الصحابة الحقيقة من الخيطين قبل نزول " من الفجر " حتى إن بعضهم وهو " عدي بن حاتم " غفل عن هذا التشبيه وعن بيان قوله " من الفجر "

---

(١) اللغة الفنية / ٧٣

(٢) البقرة / ١٨٧

(٣) انظر البحر المحيط ٥٧/٢ ، البيضاوي ١٠٧/١

فحمـــل الخيطين على الحقيقة وحكي ذلك لرسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ فضحك وقال : إن كان وسادك لعريضـــًا وروي إنك لعريض القفا ، إنما ذاك بياض النهار وسواد الليل [١] .

وقد التقت طبيعة البناء التركيبي حيث أصالة الدلالة اللونية في السياق بدلالة الـــتقابل فـــي ثنائية البياض والسواد وفي هذا التآزر ما لا يخفى من تقرير حقـــيقة الوضـــوح والجلاء وهي استمرار الأكل والشرب حتى يُسفر النهار واضـــحـــًا بحيث يتضحُ بياضه من سواد الليل المُنجلي ويلحظ المرء الصائم هـــذا الفرق بلا التباس فيُمسك عندئذٍ عن طعامه وشرابه { حتى ينتشر النور فـــي الأفـــق وعلى قمم الجبال . وليس هو ظهور الخيط الأبيض في السماء وهـــو ما يسمى بالفجر الكاذب وحسب الروايات التي وردت في تحديد وقت الإمســـاك نستطيع أن نقول : إنه قبل طلوع الشمس بقليل . وإننا نمسك الآن وفـــق المواعـــيد المعروفة في قطرنا هذا قبل أوان الإمساك الشرعي ببعض الوقت .. ربما زيادة في الاحتياط } [٢] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [٣] .

حيث سُمِّي دين الله صبغة لظهور أثر الدين على صاحبه كظهور أثر الصبغ علـــى الـــثوب وذلـــك لأنه يلزمه ولا يفارقه ، ومعلوم'' أن النصارى كانوا يغمســـون أولادهم في ماءٍ أصفر يسمونه المعمودية ويقولون هو تطهير لهم وبـــه تتحقق نصرانيتهم [٤] وهنا تكسب الدلالة اللونية السياق بُعدًا معنويًا في تَعَمـــُّق الإيمان في القلوب ، وتمكـــُّنه من الصدور كما ينطبع الثوبُ بالصبغ لا يـــنفك عـــنه { فكما لا يزول الصبغ من الثوب كذلك الإيمان لا يزول من القلـــب لأن صـــبغة الله لا أحســـن منها ولذا قيل أن موت المؤمن على غير الإيمان نادر'' كالكبريت الأحمر } [٥] .

مـــن أجل ذلك سمَّى القرآن المؤمنَ الذي ارتد عن دينه : المنسلخَ ـــ كما مرَّ آنفـــًا ـــ في قوله تعالى :

---

(١) انظر البحر المحيط ٢/٥٧ ، الكشاف ١/١١٦

(٢) في ظلال القرآن ١ / ١٧٥

(٣) البقرة/ ١٣٨ ، " صـــبغة الله : ديـــنه ، ويقـــال أصله . والصِّبغة : الشريعة والخِلقة وقيل : هي كل ما تُقـــرِّب به " لسان العرب مادة (ص . ب . غ) .

(٤) انظر البيضاوي ١/٩٠ ، أبا السعود ١/١٦٨ ، الكشاف ١/٩٧

(٥) الصاوي على الجلالين ١ / ٥٧

﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ (١) .

وفـــي ا لسياق إشارة إلى أن الله ــ جلّت قدرته ــ قد صبغ المؤمنين بصبغة الإيمان مما أغناهم عمّا يصنع النصارى وغيرهم من " التعميد " فإن أثر هذا التعميد هش'' لا يلبث أن يزول ، وأما فطرة الله التي فطر الناس عليها من التوحـــيد والدين الحق ، فهي أمر'' دائم'' أثره كالصبغ في الثوب من أجل ذلك جاء الاستفهام ومعناه النفي في قوله : ﴿ ومن أحسن من الله صبغة ﴾ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله **وجوههم مسوَّدة** أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ (٢) .

قال ابن جزي : { يحتمل أن يريد سواد اللون حقيقة أو يكون عبارة عن شدة الكرب } هذا هو المصير المحتوم لكل كافر وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة ترى ..... ﴾ تكثيف لبُعد الرؤية ... بُعد الشكل ويعطي اللـــون هنا " الأســـود " دلالات الخـــزي والكمد ... دلالات اليأس والقنوط لأنها مقرونة بالكفر ﴿ يوم تبيَّض وجوه'' وتسود وجوه فأما الذين اسودّت وُجوهُهم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ (٣) .

وسواء أكان السواد حقيقة أم مبالغة في الكرب والحسرة فالدلالة واحدة وهي دلالـــة الخزي والندامة جزاء وفاقـــًا لما أجرموا وتكبروا ، تلك الدلالة التي تعـــبِّر أيّمـــا تعبير عن سوء المصير ، وسوء الحالة البادية لهم التي يلتقطها الرائـــي منذ اللحظة الأولى سواء أكان من الغم الدفين أو من الغبرة الظاهرة أو من لفح جهنم أعاذنا الله منها .

---

(١) الأعراف/ ١٧٥

(٢) الزمر/ ٦٠

(٣) آل عمران / ١٠٦

ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ " صفراءُ فاقع " لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ (١) .

إن دلالة التعرف على هذه البقرة دلالة لونية بارزة وهي شدة الصفرة " الصفرة الفاقعة " مما يكسبها حُسن المنظر ، إذ يُسَرُّ كل من نظر إليها قال الزمخشري : { " فإن قلت " فهلّا قيل صفراء فاقعة وأي فائدة في ذكر اللون " قلت " الفائدة فيه التوكيد ، لأن اللون اسم للهيئة ، وهي الصفرة ، فكأنه قيل شديدة الصفرة صفرتها فهو من قولك جد جده وجنونك مجنون وعن وهب إذا نظرت إليها خُيّل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها } (٢) فالمبالغة في وصف الصفرة جدير " بأن يحدّد للقوم تخصيص البقرة وتميزها ومن ثمَّ ذبحها ، إذ إن هذه الأمارة اللونية كافية في التعيين إن سلمت نيتهم ، لكن الذي حدث أن اليهود تعنتوا وتشددوا وقالوا : ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ (٣) . فأضيفت عليهم قيود أخرى ، ولو أن هؤلاء أناس طبعيون كسائر البشر لكفتهم أي بقرة صفراء بيِّن اصفرارها فلما تشدَّدوا شدَّد الله عليهم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (٤) .

" ابيضت عيناه من الحزن " أي من البكاء الذي هو ثمرة الحزن ، فقيل إنه عمي ، وقيل إنه كان يدرك إدراكًا ضعيفًا (٥) وإذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته إلى بياض (٦) .

---

(١) البقرة / ٦٩ ، يقال أصفر فاقع : إذا كان صادق الصفرة ، كقولهم : أسود هالك . انظر المفردات /٦٤٢ وقال الزمخشري : (الفقوع أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه ، يقال في التوكيد : أصفر ناقع ، و وارس كما يقال أسود حالك وحانك ، وأبيض يقق ، ولهق ، وأحمر قاني وذريحي وأخضر ناضر ومدهام وأورق حطباني) الكشاف ١ / ٧٤ .

(٢) الكشاف ١ / ٧٤

(٣) البقرة / ٧٠

(٤) يوسف / ٨٤

(٥) انظر التسهيل ٢ / ١٢٦

(٦) انظر الكشاف ٢ / ٢٧١

وجلِـيَ'' أن نبـيَّ الله يعقوب بكى كثيرًا لدرجة أن العين قلب سوادها إلى بـياض ، وقـد تمَّ هذا خلال فترة طويلة (١) وكان منحى المبالغة تبلور في أمريـن : الأول : كثرة البكاء التي استحالت فيها العين إلى بياض والآخر : طول مدة الحزن التي بلغت الثمانين عامـًا أو ما يقاربها قـال الزمخشري : { (فـإن قلـت) كـيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ " قلت " الإنسـان مجـبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ولذلك حمد صبره وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى مالا يحسن } (٢) .

ومـنه قولـه تعـالى : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ ﴾ (٣) .

الجنـتان الأوليان ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ (٤) . للسابقين والأخريان ـ هنا ـ لأصحاب اليمـين ، وفي هـذا السياق وصـف لخضرتهما " مدهامتان " أي سوداوان من شدة الخضرة والرِّي ، لأن الخضرة إذا اشتدت ضـربت إلى السواد (٥) فالمبالغة في لون الخضرة أحالها إلى اسوداد وهذا بَيِّن في حياة الناس وفي واقع ألوانهم ، ما من لون أخضر بولغ في لونه إلا اسـتحال إلى سواد ، ولا شك أن البُعد اللوني كشف عن جمال ألوان أشجار ونـباتات الجنة ، ومعلوم أنك كلما ابتعدت عن الاصفرار في عالم النبات ، وبالغـت في الاخضرار كان ذلك أمتع وأبهج للنفس ، وأجذب للعين وأطرب للروح .

---

(١) قـيل ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عامـًا وما على وجه الأرض أكـرم علـى الله من يعقوب وعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه سأل جبريل عليه السلام ما بلـغ من وجد يعقوب على يوسف قال : وجد سبعين ثكلى قال : فما كان له من الأجر قال : أجر مائة شهيد وماساء ظنه بالله ساعة قط . انظر الكشاف ٢ / ٢٧١ .

(٢) الكشاف ٢ / ٢٧١

(٣) الرحمـن /٦٢ ـ ٦٤ ، الدُهمـة :/ سـواد اللـيل ، ويُعبَّر بها عن سواد الفرس ، وقد يُعبَّر بها عن الخضرة الكاملة اللون . انظر المفردات / ٣٢٠ .

(٤) الرحمن/ ٤٦

(٥) انظر التسهيل ٤ / ٨٦ ، الكشاف ٤ / ٥٤ .

د ــ البُعد النفســـــي

تنتهج الصورة الفنية في عمومها جانبين بارزين ، فهي إما تتجه إلى الطبيعة فترسم ما فيها من جمال وترصد ما فيها من فن وإما أن تقتحم أغوار النفس فتروز ما فيها من خلجات وتكشف ما فيها من دفقات الشعور وتبرز ما فيها من تموجات وطاقات . وهذا هو مدار هذا المبحث .

ولا شك أن هذا الجانب النفسي ببعده الوجداني هو بطبيعته أدخل الجوانب في موضـــوع الفـــن ، فعنصر " التأثير " هو العنصر البارز في الفن ، وأقرب وسائل التأثير هو تصوير الوجدانات البشرية في صورة جميلة موحية تؤثر في الوجدان .

ومع أن الفنون ــ وخاصة في موجتها " الواقعية " الحاضرة ــ تتخذ من كل شيء موضوعـــًا للتعبير الفني ، إلا أن وجدانات البشر ما تزال على الرغم مـــن ذلك هي الموضوع الغالب على الفن في كل لغة وفي كل جيل ، وهذا أمـــر طبعي بالنسبة للفن . وإلا انقلب علمـــًا أو فلسفةً أو أي لون آخر من ألوان التعبير الخارجة عن نطاق الفنون (١) .

ويُعـــدُّ القرآن خـــير من سجـــّل نوازغ النفس ورغـــائبها ، وما جُبلت عليه ﴿ وَلاَ يُنبِئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (٢) من ذلك قوله تعالى :

﴿ خُلِقَ الإنسانُ من عَجَل ﴾ (٣)

---

(١) انظر منهج الفن الإسلامي /٦٥

(٢) فاطر/ ١٤

(٣) الأنبـياء /٣٧ ، قـــال ابـــن منظور { العَجَل والعَجَلة : السُرعة خلاف البُطء ... قوله تعالى : " خُلِقَ الإنســـان مـــن عَجَـــل " ؛ قال الفرّاء : خُلِقَ الإنسان من عَجَل ، وعلى عَجَل ، كأنك قلت : رُكِّب على العَجَلـــة ، بنيتُهُ العَجَلة وخِلقتُهُ العَجَلة ، وعلى العَجَلة ونحو ذلك ، قال أبو اسحاق : خوطب العربُ بما تعقلُ والعرب تقولُ للذي يُكثرُ الشيء : خُلِقت منه ، كما تقول : خُلِقت من كعِب " لسان العرب مـــادة " ع . ج . ل " .

جُعِل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق من العَجَل نفسه كقول العرب لمن لازم اللعب هو من لعب ، وخُلق حاتم من جود تنزيلاً لما طبع عليه من الأخلاق منزلة ما طبع منه من الأركان إيذاناً بغاية لزومه وعدم انفكاكه عنه ومن عجلته المسارعة في الأمور وعدم الاحتكام إلى الرويَّة والاتئاد ومبادرته إلى الكفر ، واستعجاله بالوعيد وربما وقع في المضرة والحرج وهو لا يشعر .

ويتجلَّى البُعد النفسي هنا في كون الإنسان قد أدرك حظه من هذا البُعد لا محالة كما قال ابن عاشور : { ثم إن أفراد الناس متفاوتون في هذا الاستعجال على حسب تفاوتهم في غور النظر والفكر ، ولكنهم مع ذلك لا يخلون عنه } (١) .

ويصبح دور الإنسان منحصرًا في كيفية التخلص – تدريجيًا – من هذه الصفة المذمومة فهو طالما نظر إلى الأمور نظرة عابرة ، والتمس ما يريد من الأمور للحظته الحاضرة ، يريد ان يحقق كل ما يخطر بباله دون نظرٍ إلى العواقب ولن يهدأ له حال حتى يكل أمره إلى الله ويتوكل على مولاه ، فيثبت عند ذلك ويصبر ويطمئن . وبيَّن ما في السياق من مبالغة حيث نُزِّل ما طبع عليه منزلة ما خلق منه (٢) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

وفيه وصف لطبع اليهود في العناد ، والاستكبار ، وعدم اتباع نهج النبي – صلى الله عليه وسلم – فهم طبائع نافرة عن كل حق ، إذ هم في هذا السياق يُبَرِّرون انصرافهم عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وعدم اتباعهم الحق بأن قلوبهم غُلْف ووصف قلوبهم بالغلف له معنيان :

الأول : جمع أغْلَف مستعار من الأغْلَف الذي لم يُختن أي مغشاة

(١) التحرير والتنوير مجلد ٨ ٦٨/١٧

(٢) انظر التسهيل ٣ / ٢٦ ، البيضاوي ٢ / ٧٠ ، روح المعاني ١٧ / ٤٨

(٣) البقرة / ٨٨ ، ١١ قلب أغلف : بيِّن الغُلْفة : كأنه غُشِّي بغلاف فهو لا يعي شيئاً وفي التنزيل العزيز : " وقالوا قلوبنا غُلْف " ، وقيل : معناه صم } لسان العرب مادة (غ . ل . ف) .

بأغشية جبلّية لا يكاد يصل إليها ما جاء به محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولا تفقهه كقول المشركين : ﴿ قُلُوبنا فِي أَكِنَّة مما تَدْعُونا إليه وفي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بيننا وَبَيْنِك حِجَاب ﴾ (١) .

الآخر : أصله : غُلُف جمع غلاف فخفف ، والمعنى أنها أوعية للعلم لا تسمع علمًا إلا وعته ولو كان ما تقول حقًا لوعته ، يريدون أنها محفوظة من فهم الضلالات (٢) .

وخلاصة التأويلين أنهم لا يريدون الإسلام ، ولا الإذعان للحق ، وقولهم هذا إنما هو تملُّص من الإيمان ، وتخلُّص بالباطل من الهدى لذا قال الله عقب قولهم هذا ﴿ بل لَعَنَهم الله بِكُفْرِهم فَقَليلاً مَا يُؤمنون ﴾ .

ومن صور القرآن الكلية ذات الدلالة النفسية الواضحة قوله سبحانه : ﴿ مِنْ بعد مَا كادَ يَزِيغُ قلوبُ فَرِيقٍ مِنْهم ﴾ (٣) .

يعني تزيغ عن الثبات على الإيمان ، أو عن الخروج في تلك الغزوة " غزوة تبوك " وذلك لما رأوا من الضيق والمشقة ، وفي هذا بيان لتناهي الشدة وبلوغها الغاية القصوى لدى هؤلاء سواء أكانوا من ضعفاء المسلمين أو حديثي العهد بالإسلام حتى أشرف بعضهم على الميل إلى التخلف عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم .

وتسهم الأداة " كاد " ــ هنا ــ في عنصرين مهمين : الأول : المبالغة التي أشرف عليها هؤلاء وتمكُّن الجزع والخوف من نفوسهم حتى أشرفوا على الهلاك وكانوا قاب قوسين أو أدنى منه .

الآخر : البُعد النفسي : الذي رسم صورة هؤلاء المرتجفين بهذه الصورة المهتزة ، وبهذا التهويل ؛ إذ الأمر لم يكن هيِّنًا ، فإن مجرد التخلف عن غزوة " غزوة واحدة " قارب أن يودي بهم ، وفيه بيان لفضل الله عليهم بالتوبة فجاءت الآية مُصدَّرة بهذا المنِّ السابغ ﴿ لَقَدْ تَابَ الله على النبيِّ

---

(١) فصلت / ٥

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢ / ٥٩٩ ، وأبا السعود ١ / ١٢٧ ، البضاوي ١ / ٧٤ .

(٣) التوبة / ١١٧

والمهاجريـــن والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغُ قلوبُ فريقٍ منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوفٌ رحيم ﴾ .

ثم تأتي لوحة أخرى ذات دلالة نفسية أخرى لفريق أخص وهم الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وذلك في الآية التالية للمشهد السابق في السورة نفسها وهي قوله تعالى : ﴿ وَعَلى الثَّلاثة الَّذِينَ خُلِّفوا حَتَّى إذا ضاقَتْ عليهم الأرضُ بما رَحُبَتْ وَضاقتْ عليهم أنفُسُهم وَظَنُّوا أن لا مَلْجأ من الله إلا إليه ثم تابَ عَلَيهم لِيَتُوبوا ﴾ (١) .

تكشــف الآيـــة عن " الطبيعة النفسية " لهؤلاء الثلاثة بعد القعود عن هــذه الغــزوة ، وترســم بالتفصــيل المشاعر المختلفة والوجدانات المتعددة التي عكســت مظاهــر الضعف البشري ، والقلق النفسي وهم على ضد ما فعله المــنافقون إذ قالوا بملء أفواههم وأقسموا أنهم أصحاب أعذار وقَبِــل منهم النبــي ــ صلى الله عليه وسلم ــ هذا ــ أما هؤلاء فهم مؤمنون ، لكن لمَّا قصَّروا أحدث في نفوسهم هذا الضيق وأوجد فيها هذا الحَرَج .

فالآيـــة مَثّــلتْ لشدة الحيرة ، فلا استقرار ولا اطمئنان ، ودليل ذلك أولاً : أن الأرض علـــى سعتها قد ضاقت عليهم ، فلا يجدون فيها مكانــًا يستقرون فيه ولا مأوىً يلجئون إليه ، ثانيــًا : " ضاقت عليهم أنفسهم " وفي هــذا التعبير من الجمال ما فيه ؛ لأن النفس في الحقيقة لا توصف بالضيق والاتســاع وإنمــا المراد بذلك انضغاط القلوب بشدة الكرب وبلوغها منقطع الصبر (٢) ثالثــًا : " ظنوا أن لا ملجــأ من الله إلا إليه " وفيه غاية الإيمان بالركون إلى المنان بعد ما علموا ــ يقينــًا ــ أنه لا عاصم من سخطه تعالى إلا استغفاره والإنابة إليه فجاء الامتنان السابغ ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ .

---

(١) الـتوبة/ ١١٨ ، الـثلاثة الذيـن خُلـّفوا هم كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، تخلفوا عن غزوة تبوك من غير عذر ومن غير نفاق ولا قصد للمخالفة ، فلما رجع رسول الله ــ صلى الله علـيه وسـلم ــ عتب عليهم ، وأمر أن لا يكلمهم أحد ، وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم فبقوا على ذلك مدة إلى أن أنزل الله توبتهم وقد روى حديثهم البخاري ومسلم والسير . انظر التسهيل ٢ / ٨٦ .

(٢) انظر تلخيص البيان /٩٣ .

هـ ـ الطباق

من أدوات الامتداد في الصورة الكلية " الطباق " (١) ولست ـ هنا ـ بصدد الحديث عنه فنًا بلاغيًا بل عنصرًا فعَّالاً من عناصر الصور الكلية ؛ إذ ينبع جمال " الطباق " في عرض المتضادات في نسق مؤتلف يثير الانتباه إلى الفكرة ، ويرسِّخ منطق الدلالة في النفس فـ " بضدها تتميز الأشياء " والأضداد يُظهر بَعضُها بعضًا . وقد أجمع أرباب هذه الصناعة على أن " المطابقة " هي الجمع بين الشيء وضده ، كالسواد والبياض والليل والنهار .

وربما لم يلتفت الأقدمون إلى أن " التضاد " المتحقق في " الطباق " نوعٌ من " التوازن " الضروري لاستمرار الكون والكائنات ؛ لأن شاغلهم الأكبر كان اصطياد " الطباق " اللغوي الذي أوضحه لهم " الخليل " و " الأصمعي " ولم يكن ثمة التفات إلى دور " الطباق " في السياق ، ولا إلى أثر السياق في " الطباق " (٢) . وبيَّنٌ أن الطباق يُتيح للمتلقي نوعًا من الحيوية والتفاعل وإثراء الخيال عن طريق التفاعل بين الأشياء ، فعبر ثنائية الألفاظ المتقابلة يتولد في ذهنه طاقة تصويرية لا حدود لها .

إن لغة " الطباق " تكاد تتحول إلى لغةٍ تماثلية بفعل النسق الذي احتواها أو بمعنى آخر أصبحت لغة مفارقة ومماثلة في آنٍ واحدٍ ، حيث تتلاشى حدود الواقع كما في قول الشاعر :

---

(١) لعله من المُفيد الاكتفاء بمصطلح " الطباق " دون سائر مصطلحات الفن الأخرى مثل : " المقابلة " و " طباق التدبيج " و " إيهام التضاد " و " التكافؤ " و " التضاد " .....الخ فمن الممكن أن تندرج كلها تحت مصطلح " الطباق " لأنها مرحلة متقدمة من مراحل التذوق ، محاولة إدراك حدود العمل الفني الذي نحلله بإدراج مصطلح يشرح أبعاده ، أما طبيعته في ذاته فأمر أوسع من إطار المصطلحات ويكون الطباق : هو التضاد القائم بين معنيين ، إما تضادًا حقيقيًا أو مجازيًا ... بغض النظر عن أنه طباق بين مفرد ومفرد ، أو بين هيئة وهيئة ... الخ . انظر البديع في شعر شوقي د. منير سلطان منشأة المعارف بالإسكندرية ط الثانية ١٩٩٢م / ٢٥١ وانظر رسالة حذف الكلمة في القرآن الكريم /٢٦٣ .

انظر في " الطباق على سبيل المثال لا الحصر : العمدة لابن رشيق ٢ / ٥-٢٠ ، كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري /٣٣٩-٣٥٢ ، نقد الشعر لقدامة بن جعفر /١٦٢-١٦٣ ، /١٤٣-١٤٦ ، المثل السائر لابن الأثير ١٤٣/٣ ، مقدمة تفسير ابن النقيب /٣٠٢-٣١٥ ، البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣/٤٥٥-٤٦٦ ، علوم البلاغة لأحمد مصطفى المراغي / ٣٨٠-٣٨٣ ، البديع في شعر شوقي د. منير سلطان / ٢٤١-٢٥٢ ، قضايا الحداثة د. محمد عبد المطلب / ١٠٢ وما بعدها .

(٢) انظر البديع في شعر شوقي د. منير سلطان /٢٥١

أنا نار'' في مرتقى نظر الحاسد ماءُ جارٍ مع الإخوان (١)

فلم تَعُد هناك منطقة دلالية يمكن التوقف عندها لنقول هنا تنتهي حدود " النار " وهنا تبدأ حدود " الماء " (٢)

وثمة علاقة بين المبالغة والطباق ، فإذا كان الطباق هو ذكرك الشيء ونقيضه اللذين لا يجتمعان ، إثراءً لجانب الدلالة ، وإعلاءً من حيويتها ، وذلك من خلال تجاوب المتلقي عند جمعه بين طَرَفَيْ الدلالة المتباعدين ، فإن المبالغة انتقال'' بالمعنى إلى أقصى غاياته ، فالأول انتقال بالمعنى إلى الضد والآخر انتقال بالمعنى إلى الزيادة منه وبلوغ الشدة فيه .

ومن نماذجه قوله تعالى : ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ (٣).

روي أنه قيل لنوحٍ إذا فار التنور اركب أنت ومن معك ، فلما نبع الماء منه أخبرته امرأته فركب ، ومحله في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة (٤).

هل رأيت مبالغةً أفوَق من هذه "قرن'' " ينبع منه الماء .. النار والماء ضدان لا يمتزجان ، فهما متنافران ، فالعَجَب في هذه الصورة ليس الجمع بين النار والماء في ملمحٍ واحدٍ ، ولكن العجب هو نبع الماء من النار نفسها ، فتلك صورة'' بلغت الغاية في إثراء الخيال وحفز الملكات ، وألقت بظلالها على المتلقي ، فاستحالت في نهاية الأمر ـ في رحاب السياق ـ إلى طاقة تصويرية لافتة .

ولعل هذا الأمر في إعجازه ـ بهذا اللفت الناموسيّ الخارق ـ مُؤذِن'' بحدوث أمرٍ جَلَل ؛ وهو إغراق البرية جمعاء عدا نوحًا

(١) البيت : من بحر الخفيف ولم يقف محمود شاكر عليه . انظر أسرار البلاغة طبعة محمود شاكر / ١٣٢

(٢) انظر قضايا الحداثة / ١٠٥

(٣) تمام الآية " فأوحينا إليه أن اصنع الفُلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كلٍ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون " المؤمنون ٢٧ ، ((الفَوْر : شدة الغليان ، ويقال ذلك في النار نفسها إذا هاجت ، وفي القِدْر ، وفي الغضب نحو : " وهي تفور " ، " وفار التنور)) المفردات ٦٤٧

(٤) انظر البيضاوي ٢ / ١٠٣

ومن معه من المؤمنين وما أُمِر بحمله على السفينة . وكأنه على قَدْر هذا التحدي والقرع الشديد للصورة ، جاء هذا الهول والإغراق المدمر للعصاة والمفسدين فعلى حسب قوة الحدث وضخامته ، أتت الصورة عاكسة هذا الاتجاه .

وقريب'' من هذه الصورة قوله تعالى :

﴿ الَّذي جَعَلَ لَكُم من الشجرِ الأخضرِ نارًا فَإِذا أَنْتم منه تُوقِدُون ﴾ (١)

إنها طلاقة القدرة في استخلاص أحد الضدين من الآخر وفي السياق دليل على وحدانيته وكمال قدرته ـ سبحانه ـ في إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج المُخْرِق اليابس من العود الندي الرطب . وذلك أن الكافر قال : النطفة حارة رطبة بطبع الحياة فخرج منها الحياة ، والعظم بارد يابس بطبع الموت فكيف تخرج منه الحياة فأنزل الله ـ عز وجل ـ هذه الآية (٢) .

فمن قَدِرَ على إحداث النار من الشجر الأخضر مع مافيه من المائية المضادة لها كان أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضًّا فطرأ عليه اليبوسة والبلى (٣) .

ومناط المبالغة في هذه الثنائية { الأخضر ـ نارًا } حيث تفجُّر النار من الشجر الأخضر بما فيه من مائية مضادة مانعة ، فسبحان القادر على إخراج الضد من الضد من دون إبطال لأحدهما { فإنه جمع فيه بين الماء والنار والخشب فلا الماء يطفئ النار ولا النار تحرق الخشب } (٤) .

ومن الطباق بالسَّلب قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّها لَا تَعْمى الأَبْصَار ولكن تَعْمى القلوبُ الَّتي في الصُّدورِ ﴾ (٥)

---

(١) يس- / ٨٠

(٢) انظر القرطبي ٨ / ٥٦٩٧

(٣) انظر أبا السعود ٧ / ١٨٢

(٤) الصاوي على الجلالين ٣ /٢٧٦

(٥) تمام الآية " أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب'' يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور " الحج /٤٦

أي لا تعمى الأبصار عمى يُعتدُّ به ؛ إذ ليس الخلل في حواسهم ؛ لأن الأبصار إذا كانت معها آلة الرؤية من سلامة الأحداق واتصال الشعاعات لم يجز ألا ترى ما لامانع لها من الرؤية ولكن عميت قلوبهم وذلك باتباع الهوى والانهماك في الغفلة (١).

وقوله تعالى :﴿ الَّتي في الصُّدور ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يَقُولون بِأَفْواههم ﴾ (٢) وكما تقول " نظرت إليه بعيني " .

وخُصَّت القلوب بالعمى لأنه قد تكون فيها آلة التفكير والنظر من سلامة البِنْية وصحة الرؤية وزوال الموانع العارضة ثم هي مع ذلك لاهية عن النظر ومتشاغلة عن التفكير فلذلك أفردها الله تعالى بصفة العمى عن الأبصار (٣).

وقيل لمَّا نزل قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَان في هَذِهِ أَعْمى فَهُو في الآخرةِ أَعْمى ﴾ (٤)

قال ابن أم مكتوم يا رسول الله أنا في الدنيا أعمى ، أفأكون في الآخرة أعمى فنزلت (٥).

وإطار المبالغة يدور حول نفي العمى عن الأبصار ، وليس المراد نفيهُ حقيقة وكيف يكون ذلك وما يُعرض من عمى كثير'' أشهر من أن يُومأ إليه ، ويدلَّ عليه كما أشار إلى ذلك الشريف الرضي (٦).

ومن العبارات الدالة ــ أيضًا ــ على المبالغة في السياق قوله " التي في الصدور " { فإن قلت " أي فائدة في ذكر الصدور (قلت) الذي قد

---

(١) انظر التسهيل ٣/٤٣ ، وأبا السعود ٦/١١١ ، تلخيص البيان /١٩٣

(٢) آل عمران/ ١٦٧

(٣) انظر تلخيص البيان /١٩٣

(٤) الإسراء/ ٧٢

(٥) انظر أبا السعود ٦ / ١١١

(٦) انظر تلخيص البيان /١٩٣

تُعـــُورف واعــتقد أن العمـــى على الحقيقة مكانه البصر وهو أن تصاب الحدقــة بما يطمس نورها ، واستعماله في القلب استعارة ومَثـَل ، فلما أريد إثـبات مــا هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصـــار احـــتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين ، وفضل تعريف ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار } (١) .

ومن نماذجه قوله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتــًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي **الظُّلُمَاتِ** لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (٢)

قـــال أبو حيان : { لما تقدّم ذكر المؤمنين والكافرين مَثـَّل تعالى بأن شـبه المؤمن بعد أن كان كافرًا بالحي المجعول له نور يتصرف بــه كيف سلك ، والكافر بالمختلط في الظلمات المستقر فيها دائمــًا ، ليظهر الفرق بين الفريقين } (٣) .

ومــن هــنا فنحن أمام ثنائيتين تبلورتا في التقابل المعجمي والصرفي معــًا :

الأولى : { ميتــًا ــ أحييناه } والأخرى : { نورًا ــ الظلمات }

اسم ← فعل ، مفرد ← جمع

أضف إلى ذلك الثنائية المجازية القائمة على الموت والحياة والظلمات والــنور وتمثل حقيقتها القائمة على الكفر والإيمان ، ليؤول الأمر في النهاية إلـــى طرَفَيْ الطباق المتناقضين : الأول : المؤمن الذي مُثّل بالحي الذي له نـــور يتصـــرف بـــه كيفما اتجه . والآخر : الكافر القابع في كفره فهو في ظلمات مطبقة .

---

(١) الكشاف ٣ / ٣٦ ، وانظر التسهيل ٣ / ٤٣ ، والبحر المحيط ٦ / ٣٥٠

(٢) الأنعام/ ١٢٢ ، قال ابن عباس : نزلت في " حمزة " و " أبي جهل " رمى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بفرث . فأخبر بذلك حمزة حين رجع من قنصه وبيده قوس وكان لم يسلم ، فغضب فعلاً بها أبــا جهل وهو يتضرع إليه ويقول : " سفَّه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا . فقال حمزة : ومن أسفه منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله وأسلم . انظر البحر المحيط ٤ / ٢١٦ وقيل نزلت في " عمّار بن ياسر " وقيل في " عمر بن الخطاب " والذي في الظلمات أبو جهل والعبرة بعموم اللفظ . انظر التسهيل ٢ / ٢٠ .

(٣) البحر المحيط ٤ / ٢١٦

obeikandi.com

وإذا أنعمت النظر في السياق ألفيت أن قوة التقابل لم تنحصر فقط في لمح البُعد بين المظهرين ، وإدراك الهوَّة بين المسلكين ؛ بل ألفيتها ظاهرة في تتابع تلك التقابلات الثنائية التي أدَّت إلى تَرسيخ المعنى في النفس ، وعملت على إبراز المدلول في قالب توازني بين الكلمات كما اتضح لك في جلاء من ناحـية أخرى لطف المبالغة المتمثل في جمال التصوير بالتضاد ، والتعبير عن المؤمن بالحي المستضاء ما حوله ، والكافر بالميت الذي تكتنفه الظلمات من كـلِّ جانب .

ومن أمثلته كذلك قوله تعالى :

﴿ قُـل اللَّهمَّ مَالك المُلك تُؤتي المُلْك من تَشَاء وتَنزع الملكَ مِمن تَشاء وتعزُّ من تشاء وتذِل مَن تَشَاء بِيَدِكَ الخيرُ إنَّك على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ ﴾ (١)

ونحـن هـنا ــ أيضــًا ــ أمام ثنائيتين : الأولى { تؤتي ــ تنزع } والأخرى { تعزُّ ــ تذل } ، حيث تميَّزتا بالاتساق الصرفي القائم على صيغة الفعل المضارع ، وذلك لتتابع الإيتاء والنزع ــ والعز والذل وتداول ذلك بين الخلْـق ؛ فلـيس لأحدٍ ملكية خاصة أصيلة يتصرف فيها على هـواه على الدوام ، وإنما هي ملكية مُستعارة له ، وكذلك هو ــ سبحانه ــ يعز من يشاء ويذل من يشاء ، بلا معقب على حكمه وبلا مجير عليه ، فالذي يتولى تدبير الخلْق بالقسط والعدل هو الله ــ عز وجل ، فهو بيده الخير الحقيقي في جميع الحالات .

هذه الثنائية بين كل لفظين متطابقين ، وتتابعها على هذا النحو بصيغتها المضـارعة يشـكل لوحةً فنية متناهية في التعبير لما يكون عليه الناس من تقلُّـب في المنح والمنع والعز والذل ، واللافت أن المفارقة في هذا النسق الممـتد تخرج عن إطارها المعجمي المحدود لتتبلور في إطارٍ دلالي جديدٍ أعـم وأرحـب ، فيه حفز '' لمُخيَّلة المتلقي لاستكشاف تفصيلات الصورة . وبهـذا تتشـكل خطـوط المبالغة ، وتبدو أبرز ما تكون في بعض خطوط الصورة كما في لفظ " تنزع " إذ فيها إشارة إلى **المبالغة** في التشبث بالحكم ، والتقاتل دون كرسي الحكم فلا يتركه الحاكم إلا انتزاعًا .

---

(١) آل عمران/ ٢٦

و ـ الحـــــال

يُعَـدُّ " الحال " أداة رئيسة من أدوات الامتداد في التصوير القرآنـــي ولا يخفـــى ما يؤديه من دورٍ حيويّ وفعَّال في إثراء الخيال وإنماء الجانب الحركي للصورة ؛ إذ هو ـــ غالبــًا ـــ ما يُعبِّر عن " هيئة " ، فإن كانت هذه الهيئة ثابتة ، اسْتُمْجِد لك استخدام الاسم ، وإن كانت الهيئة متغيرة اسْتُمْلِح لك استخدام الفعل كما في قول الشاعر :

أوَ كلما وَرَدَتْ عُكَاظَ قبيلةٌ بَعثوا إليَّ عَرِيفَهم يَتَوَسَّمُ (١)

فلو قال الشاعر " بعثوا إليَّ عريفهم متوسمـًا " بالتعبير بالاسم عن الحال لم يفد ما أفاده الفعل حق الإفادة ، لأن المعنى على توسُّم وتأمـُّل ونَظـَر يتجدد مـن العـريف حـالاً فحالاً ؛ إذ هو يتصفح الوجوه واحدًا بعد واحدٍ فكان الأنسب في هذه الهيئة هو ما عبَّر عنه الشاعر باستخدام الفعـــل المضارع " يتوسم " (٢) ومن هنا يمكن القول إن الدور التصويري الذي يناط بالحال ، إنمـا يتضاعف ويتفاعل بقوة إذا جاء بصيغة المضارع أو ما يضارعها من الاشتـقاقات كصيغة اسم الفاعل واسم المفعول ... الخ ، الأمر الذي يؤول فـي النهاية إلى تقوية عنصر الامتداد في الصورة الكلية . ومن نماذجه قوله تعالى :

﴿ ولا تَحْسَـبَنَّ الذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتـًا بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون * فرِحِين بما آتاهم الله من فضله ويَسْتبْشِرُون بالذين لم يلحقوا بهم مـن خلفهـم ألا خـوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ (٣) .

وفي هذا السياق ثلاثـــــة أحـوال : " يرزقون " ، " فرحين " ، " يستبشـرون" وفـيه إشـارة إلى فضل الله ـــ سبحانه وتعـــالى ـــ على الشهداء ، وتجدُّد رزقه لهم مثلما يُرزقُ سائرالأحياء يأكلون ويشربون ، وهو

---

(١) البيـت من بحر الوافر وهو لطريف بن تميم العنبري في " الأصمعيات " انظر دلائل الإعجاز طبعة محمود شاكر /١٧٦

(٢) انظر دلائل الإعجاز /١٧٧

(٣) آل عمران/ ١٦٩ ـــ ١٧١

تأكيد لكونهم أحياء ، وصف حالهم التي هم عليها من التنعم برزق الله ، وهو إعلام'' في الوقت نفسه بتميُّز حال الشهداء عن سائر الأموات من المؤمنين فإنهم لا يتمتعون بالأرزاق حتى يدخلوا الجنة يوم القيامة .

ومن هنا لا يحق تسمية الشهداء أمواتًا ، فما بَعِدوا إلا عن أعيننا وما تواروا إلا عن أبصارنا ، هذه الفترة التي يكون فيها سائر الناس أمواتًا يكونون هم أحياءً .. يحيون حياةً مُمَتَّعة ، وصفهم الله ــ عز وجل ــ فيها بأنهم :

أولاً : " أحياء'' عند ربهم " .
ثانيًا : " **يرزقون** " إذ هم وحدهم متنعمون في الجنان .
ثالثًا : " **فرحين** بما آتاهم الله من فضله " وذلك لما وجدوه من النعمة والغبطة .

رابعًا : "**ويستبشرون** " كُرِّرت مرتين : الأولى : استبشار بإخوانهم المجاهدين الذين لم يستشهدوا بعد . والأخرى : بنعم الله المتتابعة .

ومن ثَمَّ فهذا السياق كفيل بأن يصحح مفاهيمنا حول قضيتي الحياة والموت وكأن الآيات تنطق بأن الحياة الحقيقية التي ينبغي أن يحياها العباد ولايحيدوا عنها قيد انملة ولا يفرطوا فيها بأي صورة من الصور إنما هي حياة الشهداء !

ومناط المبالغة أنهم في عُرف الناس قد فقدوا حياتهم ودمَّروا مستقبلهم وخلَّفوا وراءهم أولادًا يُتَموا ، أو نساءً رُمِّلت ، أو أمهات ثُكِلت فإذا بالآيات تذكر لنا عظيم تكريمهم ، ومزيد تشريفهم بما لم يحظ به أحد من قبل ولله الفضل والمنة .

ومنه المبالغة في الارتكاس وتعميق الطعن في الدين قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيكُمْ فَكُنْتُمْ **عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ** ﴾ (١) .

---

(١) المؤمنون /٦٦ ، ٦٧

السياق يطلعنا على الدور التصويري للحال في تصوير شأن هؤلاء المشركين الطاعنين في الدين بهذه الأوصاف : ﴿ فَكُنْتم عَلى أعْقابكم تَنْكِصُون ﴾ إنه البُعد الحركي في التقهقر إلى الخلف كالناقص على عقبيه بالرجوع إلى الوراء .. إنها صورة الإعوجاج النفسي والعَقَدي تنعكس في رسم الصورة ، إن الناس يسيرون إلى الأمام وهم يَأبَوْن إلا الارتكاس إلى الخلف ﴿ مستكبرين به ﴾ أي مستكبرين ــ بسبب القرآن ــ عن الإيمان ، ثم تأتي الحالات : ﴿ سامرًا تهجرون ﴾ في لوحة فنية مُعبِّرة عن تأكيد المبالغة في الطعن ؛ إذ يتحدثون في ليلهم لا حديث لهم إلا الطعن في الدين وسب الرسول ــ صلى الله عليه وسلم .

ومن أمثلته قوله تعالى :

﴿ وإذَا بُشِّر أحَدَهم بالأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُو كَظِيمٌ * **يَتَوارَى** مِنَ الْقَوْمِ من سُوء ما بُشِّر به **أيُمْسِكُهُ على هُونٍ** أمْ يَدُسُّه في التراب ألا سَاء ما يَحْكمُون ﴾ (١) .

هذا شعور أهل الشرك في الجاهلية ، إذا ما رزق أحدهم أنثى ظل وجهه مُسودًا ، وهو ممسك غيظه في نفسه ، يختفي من قومه خوفًا من العار الذي لحقه بسبب البنت ، كأنها بلية وليست هبة إلهية ، ويُحدِّثُ نفسه في ترددٍ مشين : أيستبقيها على ذلٍ وهوان أم يدسها في التراب والسياق به أربعة أحوال هي :

١- " وهو كظيم " حال جملة أسمية .

٢- " يتوارى " حال جملة فعلية .

٣- " أيمسكه " حال " " .

٤- " على هون " حال شبه جملة (٢) .

---

(١) النحل/ ٥٨ ، ٥٩

(٢) انظر البحر المحيط ٥ / ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، التبيان في إعراب القرآن للعكبري ٢ /٧٩٩ .

ومما ينبغي الالتفات إليه أن الحال في رسمه هذه الصورة الكلية الممتدة قد استقصر الأبعاد المختلفة لهذا الرجل المبتلى ببنت ، وعبَّر أداء الحال بكل دقة عن الوجدانات المختلفة التي تصارعت في نفسه ، ويمكن حصر دور الحال في هذا السياق في وصف الأبعاد الآتية :

١- دقة البُعد الوصفي الشكلي : وتمثَّل في قوله " وهو كظيم " .

٢- دقة البُعد الحركي : وتمثَّل في قوله " يتوارى " .

٣- دقة البُعد النفسي : وتمثَّل في قوله " أيمسكه على هونٍ أم يدسه في التراب " .

أما البُعد الأول : " وهو كظيم " فقد دل سياق الحال ــ وهو جملة اسمية ــ على ثبات وصف الحزن وكظم الغيظ لهذا الرجل سواء أمسكها أم وأدها في التراب ولذا قال أبو السعود : { " وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى " : أي أخبر بولادتها " ظل وجهه " أي صار أو دام النهار كله " مسودًا " من الكآبة ، والحياء من الناس ، واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشويش } (١) .

والبُعد الثاني : " يتوارى " ودلالة صيغة المضارعة تعني انتقاله من مجرد البُعد الشكلي الظاهري إلى الأداء الحركي الذي يبدأ فيه بالاختفاء عن أعين الناس خوف العار ونظرات الشماتة وَفْق العادات الجاهلية المشينة ، ويبدو أن هذا التواري لا يحدث منه جملةً أو دَفْعة واحدة ، بل ربما اختلط بالناس ، فإذا استشعر من يؤنبه أو يؤذيه ، توارى .. هكذا دواليك الفَيْئة بعد الفَيْئة .. توارٍ ثم اختلاط ! .

ثم يجيء البُعد الأخير : وهو يعكس الجانب النفسي الذي يعتمل داخله فهو أبدًا متردد'' بين أمرين ، أحلاهما مُرٌّ ، وأحسنهما سئ فإما يمسكها ويبقى على الذل والهوان ، وإما يدفنها في التراب .

ولعل عطاء المبالغة يكمن في الأداء الحيوي والممتد لصيغة الفعل المضارع المتكررة : { يتوارى ــ يمسكه ــ يدسه } إضافة إلى

---

(١) أبو السعود ٥ / ١٢١

الشحنة العالية والدفقة المختزنة من الغيظ والحَنَق التي اعترت الرجل في قوله تعالى : ﴿ وَهو كظيمٌ ﴾ وجاء السياق بتعبير الجملة الاسمية ليدل على ثبات الغضب الذي رسخ في نفسه وكاد أن ينفجر من شدة الامتلاء . وتظل الصورة ترسم أبعاد هذا الانفعال ويظل الرجل ينتقل من شعورٍ إلى شعور حتى يصل إلى ذروة الحَنَق والغيظ والتحرُّج من أعين الناس وذلك بالتخلص من ابنته نهائيًا ولو كلفه ذلك أن يدفنها حيةً أمام عينيه حتى جاء القرآن ناقدًا هذا السلوك المعيب في قوله تعالى : ﴿ وَإذا الموءودةُ سُئِلتْ * بِأي ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ (١) .

ومن نماذجه قوله تعالى :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوا إليه وهم يَجْمَحُونَ ﴾ (٢) .

إنهم صنفٌ من المنافقين .. جبناء .. يحلفون بالله إنهم من المؤمنين وقد كذبوا وذلك لخوفهم الشديد ، وقد جاء التعبير يرسم لذاك الجبن مشهدًا عجيبًا وذلك من خلال موقع الحال التصويري " وهم يجمحون " فهم متطلعون دومًا إلى ملجأ يحتمون به ، ويأمنون فيه ، لأنهم يعيشون على الذعر والمطاردة ، يخشون من انكشاف طويتهم السوداء ، فإذا ما تبدّى لهم حصنٌ أو مغارة أو نفق طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانًا ، لكن بأي سرعة ينطلقون ؟! وهنا يأتي دور " الحال " في رسم السرعة التي ينطلقون بها نحو هدف الاحتماء ، لقد صورت طريقتهم في الإسراع بسرعة الفرس الجموح الذي لا يستطيع حتى اللجام أن يرده عن سرعته وقوة اندفاعه وشدة عدوه كما قال الزمخشري : { " يجمحون " : يسرعون إسراعًا لا يردهم شيء من الفرس الجموح وهو الذي إذا حمل لم يرده اللجام } (٣) ويتمثل إطار **المبالغة** في شدة السرعة الممثلة في " الفرس الجموح " تصويرًا لشدة الجبن المستوطن في نفوس هؤلاء التعساء .

---

(١) التكوير / ٨ ، ٩

(٢) تمام السياق : " ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قومٌ يَفْرَقُون * لو يجدون ملجأً أو مغاراتٍ أو مُدَّخلاً لولوا إليه وهم يجمحون " التوبة ٥٦ ، ٥٧

(٣) الكشاف ٢ / ١٥٧

ومـنه قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُم يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُر * خُشَّعًا أَبْصَارُهُم يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُم جَرَادٌ مُنتَشِر * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ (١).

الآيات تصور مشهد خروج الكافرين من القبور بعد دعوة إسرافيل إلى شيءٍ منكر فظيع ، تتكره النفوس لشدته ولهوله وهو يوم القيامة ، فيخرجون في جموعٍ غفيرةٍ حاشدة كأنهم في انتشارهم وسرعة إجابتهم للداعي جرادٌ منتشر لا يدرون أين يتجهون من الفزع وقد بلغوا غاية الذلة والمهانة ، يقول الكافرون ساعتها : هذا يوم عسر .

هذه اللوحات المتتابعة شكّلها أداء الحال التصويري لهيئات هؤلاء الكافرين شكلاً وصوتًا وحركة وإيقاعًا ، فاكتملت صورة كلية بأبعادها المختلفة . ولنبدأ أولاً برصد الأحوال في السياق وهي :

١- " خشعًا " حال مفردة .
٢- " يخرجون " " جملة فعلية .
٣- " كأنهم جراد " " " اسمية .
٤- " مهطعين " " مفردة .
٥- " يقول " " جملة فعلية (٢)

ولعلك تلحظ الانتقال بين هذه الأحوال من المفردة إلى الجملة بشقيها الإسمي والفعلي ثم مرة أخرى إلى المفردة .. الخ . وهذا بدوره يؤدي إلى تنوع الصورة وتباين الهيئات المعبرة عن مواقفهم المختلفة وقد ارتسمت في أبعاد أربعة هي :

١- البُعد الوصفي الشكلي : { " خشعًا " ـ " مهطعين " }
٢- البُعد الحركي : { " يخرجون " ـ " كأنهم جراد منتشر " }
٣- البُعد الصوتي : { " يقول الكافرون " }
٤- البُعد النفسي : { الذلة والانكسار والتحسر البادي في قولهم " هذا يومٌ عسر " }

---

(١) القمر/ ٦ ـ ٨

(٢) انظر التبيان في إعراب القرآن ٢ / ١١٩٢ ، البحر المحيط ٨ / ١٧٤ .

فالملمح الأول يرسم دقة الوصف الخارجي لهيئاتهم ، فيرصد حركة الأبصار وهي ذليلة منكسرة ــ والعيون وحدها تحكي حال الإنسان في حزنه ويأسه وفرحه وطرحه ، وقسوته ورحمته ، وجبروته ورأفته ، واستعلائه وذلته ــ وثمة صورة أخرى خارجية تتبدَّى على ظواهرهم ألا وهي اتجاه حركة العنق ومدها إلى الداعي " مهطعين إلى الداع " [1] قال الزمخشري : { مسرعين مادي أعناقهم إليه وقيل ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم } [2] .

أما البُعد الحركي فقد بات واضحًا في صفة الخروج المندفع كالجراد المنتشر قال بن جُزي : { شبَّههم بالجراد في خروجهم من الأرض فكأنه استدلال على البعث كالاستدلال بخروج النبات وقيل إنما شبَّههم بالجراد في كثرتهم وأن بعضهم يموج في بعض } [3] أضف إلى هذا التموج وتلك الكثرة الحاشدة ما انماز به الجراد بالاتجاه إلى غير قصد ، والتحرك إلى غير هدف ، وهذه الحركة العشوائية في الانطلاق تكشف مدى الفزع والتخبط اللذان يعتريانهم ساعة الخروج ، وهنا يبدو إطار المبالغة إثر الحركة المتناغمة مع الشحن الداخلي المنوط بهذا الفزع وذاك الخوف .

أما البُعد الصوتي : فدلالته منطوقهم في هذا اليوم الرهيب بعد ما رأوا ما رأوا وفُزِّعوا الفزع كله ، فإذا بهم ينطقون نطق المرتجف الحسير " يقول الكافرون " هذا يوم عسر " كيف نطقت ألسنتهم وسط هذا الكرب ؟! بل كيف لانت مخارجهم لنطق الحرف ، إن أقصى ما عبَّروا عنه يومئذٍ " هذا يوم عسر " وهنا يبرز البُعد الأخير وهو البُعد النفسي بعد هذا التتابع المتلاحق للمشاهد ، والإيقاع السريع للأحداث يتبدَّى الأسف ، وتعنُّ نبرة الأسى وتعلو نغمة الانكسار ، عجيب'' أمر هؤلاء ! ؛ فقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما لانوا ولا استجابوا وجاءهم النذير فما

---

(١) قال ابن منظور : { هَطَعَ يَهْطَعُ هُطُوعًا وأهْطَعَ : أقبل على الشيء ببصره فلم يرفعه عنه .. والمهطع الذي ينظر في ذُل وخشوع ... وهطع وأهطع : أقبل مسرعًا خائفًا لا يكون إلا مع خوف ، وقيل : نظر بخضوع .. وقيل : مد عنقه وصوَّب رأسه وقال بعض المفسرين في قوله مهطعين : مُحَمِّجين ، والتحميج إدامة النظر مع فتح العينين } لسان العرب مادة (هـ . ط . ع) ، وقال الراغب الأصفهاني : { هطع الرجل ببصره : إذا صوَّبه } المفردات / ٨٤٣ .

(٢) الكشاف ٤ / ٤٤

(٣) التسهيل ٤ / ٨٠

انطـاعـــوا حتى إذا ظـــــاهروا العذاب بدت منهم الحسرة والندامـــة وضـــل عنهم ما كانـــوا يفترون . واليـوم ــ فقط ــ يعترفون " هذا يوم عسر " ، وفي هذا التعبير إشارة إلى أن ذلك اليوم يوم شديد على الكافرين لا على المؤمنين كقوله تعالى : ﴿ عَلَى الكَافِرِين غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ (١) .

وقد تآزرت دلالة المبالغة مع دلالة الحال في رسم هذه الصورة الكلية الممتدة لا سيما في تكثيف الإيحاء في وصف الصورة التشبيهية ساعة الانبعاث من القـبور وفـــي لمح هيئاتهم الكالحة " خشعـًا أبصارهم " ثم أخيرًا في كشف البُعد النفسي المُتحسِّر عند معاينة العذاب .

إن الصـــورة الفنية المنوطة بفن المبالغة ــ التي من خصائصها القوة والشدة وبلوغ المنتهى ــ تقرب للإدراك المحدود صورة غير المحدود ، كما يمكنها بفنيـتها لمـــس المشاعر الخاصة التي يشعر بها كثيرون في مواقف وجدانية متبايـــنة بحيـــث لا يكـــون ثمة سوى المبالغة لتصوير هذه الوجدانات وتلك المشاعر .

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلا عَشْرًا ﴾ (٢) .

الآيتان تبينان الحالة التي يحشر عليها المجرمون حيث يعرفون بزرقة العيون وســواد الوجـــوه تشـــويهـًا ونكالاً بهم وهم يتهامسون فيما بينهم ويسرّون القـــول : ما مكثتم في الدنيا إلا عشر ليال ؛ إذ استقصروا مدة لبثهم فيها لما عاينوا من الشدائد والأهوال ، وورد في السياق حالان هما :

١- زُرقـًا	حال مفردة
٢- يتخافتون	حال جملة فعلية

وقد صوّرا ملمحـًا جـــــديدًا من مشاهد الكافرين يوم القيـــامة ، يتفق ــ كثيرًا ــ مع ما سبق ذكره من التعبير عن الشكل الخـــــارجي والطريقـــة

---

(١) المدثر/ ١٠

(٢) طـــه/ ١٠٢ ، ١٠٣

الصوتية التي يتخاطبون بها ثم نقل الأحاسيس والمشاعر اللتان تنطويان في باطنهم ، فاكتملت أبعاد ثلاثة في هذا السياق :

١- البُعد اللوني : { " زرقـًا " }

٢- البُعد الصوتي : { " يتخافتون " }

٣- البُعد النفسي : { المتبلور في التحسر في استقصار مدة لبثهم في الدنيا لما عاينوا العـــذاب " إن لبثتم إلا عشرًا " } .

أما البُعد اللوني الظاهر في زرقة العيون فإنما قُصِد به مع سواد الوجوه سوء الهيـئة ، وقـبح المنظر { وقيل المعنى : عميـًا لأن العين إذا ذهب نورها ازرق ناظـرها وبهذا التأويل يقع الجمع بين قوله " زرقـًا " في هـذه الآية و " عميـًا " في الآية الأخرى (١) . وقيل : زرق ألوان أبدانهم ، وذلك غاية في التشويه ، إذ يجيئون كلون الرماد ، وفي كلام العرب يسمى هذا اللـون أزرق ، ولا تـزرق الجلـود إلا من مكابدة الشدائد ... وذكرت الآيتان لابن عـباس فقـال : ليوم القيامة حالات ، فحـالة يكونون فيها زرقـًا ، وحالة يكونون عميـًا } (٢) .

وأمـا الـبُعد الصـوتي فدلالته " التخافت " ؛ إذ يتحدثون حديث السر ، فلا يملكـون يومئذٍ إلا التهامس من فرط الرعب الذي اعتراهم ، ومن هنا فإن خفوت الصوت بهذه الصورة هو أعظم دلالة على الرهبة المُخيِّمة على ساحة الحشـر . ولا يخفى ما في هذا البُعد أيضـًا من بُعد حركي كائن في حركة التهامس وهذا بدوره ينقلنا إلى البُعد النفسي حيث تضاءل الزمن أمام أعينهم وتقاصر العمر حتى أضحى أيامـًا عشرة ؛ بل قال أعقلهم وأرشدهم رأيـًا ﴿ إن لبثتم إلا يومًا ﴾ (٣) .

---

(١) يعني قوله تعالى : " ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميـًا وبكمـًا وصمـًا " الإسراء/ ٩٧ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٢٥٨

(٣) طـه/ ١٠٤

وهـنا تبرز المبالغة ــ في إحدى صورها ــ في القلة المتناهية ؛ إذ اختصر العمر في يوم واختزل الزمن ــ في أعينهم ــ اختزالاً شديدًا .

واللافـت أن إدراك دلالـة السياق ــ في رحاب جماليات التلقي ــ قد انبنى علـى إرشـاد المُتلقين إلى الصلات الدلالية القائمة بين هذه الأبعاد الثلاثة : دلالـة شـكلية ــ دلالـة صوتية ــ دلالة نفسية وهي كالصورة السابقة تبدأ بالشـكل " ثم الصوت .. ثم تحليل المنطوق .. فهي وحدة متكاملة ولوحات فنية متتابعة آلت في نهاية الأمر إلى إبانة هذه الصورة الكلية اللافتة .

ومنه قوله تعالى :

﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ (١) .

هذا وصف الذين عملوا السيئات حيث تغشاهم الذلة ويعمهم الهوان وفوق ذلك تـبدو وجوههم مُسودَّة سوادًا منقطع النظير إذ تبدو كقطع الليل المظلم ، فهو تشبيه بَيْد أنه جاء على صورة الحال ، قال أبو حيَّان { هذه **مبالغة** في سواد الوجـوه ، وقـد جاء مُصرَّحًا في قـوله " وتسود وجـوه " آل عمران ١٠٦ } (٢) .

إنـه السواد الحالك وكأن الليل قد تقطع أجزاءً تلبَّست وجوههم وكأنهم أجزاء لـيلٍ متحرك قال ابن عاشور : { " مظلمـًا " حال من الليل ووصف الليل وهو زمن الظلمة بكونه " مظلمـًا " لإفادة تمكُّـن الوصف منه كقولهم : ليل أليل ، وظل ظليل ، وشعر شاعر ، فالمراد من الليل الشديد الإظلام باحتجاب نجومه وتمكُّن ظلمته . شُبِّهت قترة وجوههم بظلام الليل } (٣) .

وغنيٌّ عن البيان أن قدرة الصورة على الإبانة عن هذا البُعد اللوني الظاهري بهـذا العمـق أسـهم فيه : التشبيه وفنيته في التوضيح ، وتصوير الحـال ودلالتـه في الكشف عن هيئـة وجوههم ، اضف إلى ذلك : المبالغـة

(١) تمـام الآيـة " والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما أغشـيت وجوههـم قطعـًا مـن الليل مظلمـًا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " يونس/ ٢٧ ، ومظلمًا : حال من الليل . انظر القرطبي ٤ / ٣٢٥٩ والتحرير والتنوير مجلد ٦ ١٤٨/١١ .

(٢) البحر المحيط ٥ / ١٥٠

(٣) التحرير والتنوير مجلد ٦ ١١ / ١٤٨

التي برزت من خلال التصوير في إلباس الوجوه قطعـًا من الليل ، وفرق'' أن تقـول : وجوهٌ'' كالليل .. ووجوه'' أغشيت قطع الليل ، فإنك في التشبيه الثانـي قـد تحرّكت بالمعنى إلى أقصى غاية ؛ إذ جعلت الليل ذاته مجزّءًا قطعـًا قد لفَّ الوجوه وغشيها ، وثمَّ أمر'' آخر من عناصر المبالغة وهو أن الليل بهيم لا ضوء فيه ولا نجوم ، أضف إلى ذلك ما في السياق في قوله : ﴿ ومـا لهـم من الله من عاصـم ﴾ { من المبالغة في نفي العصمة مالا يخفى } (١) .

ومثله قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى **بَصَائِرَ لِلنَّاسِ** وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

فقـد أعطى " موسى " ــ عليه السلام ــ التوارة لتكون ضياءً لبني إسرائيل قال الزمخشري : { " بصائر " نصب على الحال والبصيرة : نور القلب الذي يستبصر به كما أن البصر نور العين الذي تبصر به يريد آتيناه التوارة أنوارًا للقلوب لأنها كانت عمياء لا تبصر ولا تعرف حقـًا من باطل وإرشادًا لأنهم كانوا يخبطون في ضلال } (٣) .

والموطـن كالصـورة السابقة تشبيه'' بليغ'' ، شُبِّهت التوارة بالأنوار التي تضـيء القلـوب ، وذلـك كما أن البصر نور العين ، فإنها نور القلب وجاء التشبيه على صورة الحال فبات جلاء الصورة مؤكد البيان ، ومكمن المبالغة كمـا قال الصاوي في التعليق على قوله " بصائر للناس " : { إما على حذف مضـاف أي ذا بصـائر وإما **مبالغة** على حد ما قيل في زيد عدل } ولعله يعنـي بذلـك ــ فـي وجه المبالغة ــ أمرين : الأول في كونه تشبيهًا بليغًا والآخر في وضع المصدر موضع اسم الفاعل (٤) .

---

(١) روح المعاني ١١ / ١٠٥

(٢) القصـص ٤٣ ، " بصـائر للناس " حال من الكتاب جمع بصيرة وهي نور القلب أي أنوارًا للقلوب انظر الصاوي على الجلالين ٣ / ١٨١

(٣) الكشاف ٣ / ١٧٠

(٤) انظر وضع المصدر موضع اسم الفاعل في مبحث " طرائق أخرى للمبالغة " .

ز ــ الصفـــــة

تُعَدُّ " الصفة " مُكوِّنـًا أساسيًا من مكونات الصورة وامتدادها ؛ وذلك بما تضفيه على السياق من توضيح ، وما تحمله من دلالة عبر لفظة " النعت " إذ تُسهم بقدرٍ كبيرٍ في بيان أحد عناصر الصورة الكلية ــ وهي ليست ــ في الحقيقة ــ كالحال في إمكانية التتابع في الصورة ، فهي غالبًا ما تقتصر على لونٍ واحدٍ من ألوانها ، لكن هذا لا يُقلِّل من دور الوصف في التصوير فهو يحمل في سياقاتٍ كثيرةٍ دلالاتٍ لها خطرها في الصورة الفنية .

ومن النماذج التي اتضح فيها الدور التصويري للصفة قوله تعالى :

﴿ كَأَنَّهُم حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ (١) .

شُبِّه الكفار بالحمر الوحشية النافرة من الأسد من شدة الفزع ، وذلك لشدة إعراضهم ونفارهم عن الإيمان ، واللفظ الأول للصفة في السياق " مستنفرة " ودلالتها المبالغة في النفور قال أبو حيَّان : { لا شيء أشدُّ نفارًا من حمر الوحش ؛ ولذلك شبَّهت بها العربُ الإبلَ في سرعة سيرها وخفتها } (٢) وذلك بقصد المذمة والتهجين ، لأن ناسًا يفرون من الهدى والخير والنور على أيدي رسلهم الذين لا يبغون لهم إلا السعادة في الدنيا والآخرة لهم أحقُّ بهذا الوصف وأولى بهذا التشبيه . { إنها الريشة المبدعة ترسم هذا المشهد وتسجله في صلب الكون ، تتملاه النفوس ، فتخجل وتستنكف أن تكون فيه ، ويروح النافرون المعرضون أنفسهم يتوارون من الخجل ، ويطامنون من الإعراض والنفار ، مخافة هذا التصوير الحي العنيف } (٣) .

واللفظ الآخر للصفة " مُنَشَّرة " والمعنى يطمع كل إنسان منهم أن

---

(١) المدثر/ ٥٠ – ٥٢ ، كلمة " قسورة " لها معانٍ كثيرة : قال ابن عباس : القسورة : الرماة ، وقال أيضًا : هو الأسد ، وقيل أصوات الناس ، وقيل الرجال الشداد ، وقيل سواد أول الليل انظر التسهيل ٤ / ١٦٣

(٢) البحر المحيط ٨ / ٣٧٢

(٣) الظلال ٦ / ٣٧٦٢

يُنَّزل عليه كتاب'' من الله ، معنى " مُنشَّرة : منشورة غير مطوية أي طرية كما كتبت لم تطو بعد ؛ وذلك أنهم قالوا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا نتبعك حتى تأتي كل واحدٍ مِنَّا بكتابٍ من السماء فيه من ربِّ العالمين إلى فلان بن فلان نؤمر باتباعك (١) وبَيِّن'' ما في الوصف من مبالغة في الطلب . فقد بلغ بهم من الاستكبار أن طلبوا تنزل الآيات عليهم واشترطوا في ذلك من غلوهم أن تكون " مُنشرة " كأنهم يبتغون الوصول إلى مراتب الأنبياء ، فأي ُغلوٍّ أبعد من هذا ؟!

ودلالة " الوصف " الحسد البيِّن لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتمكُّن الشماس والنفار من نفوسهم والبحث عن علل واهية يبرِّرون بها إعراضهم عن الحق ، وإمعانهم في الضلالة .

ومنه قوله تعالى :

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ (٢) .

الريح العقيم : الريح المدمرة التي لا خير فيها ولا بركة ؛ لأنها لا تحمل المطر ولا تلقح الشجر وإنما هي للتدمير والإهلاك ، وهي الريح التي تُسمَّى الدبور كما في الصحيح " نصرت بالصبا واهلكت عادُ'' بالدبور " قال المفسرون : سميت " الريح العقيم " تشبيهًا لها بعقم المرأة التي لا تحمل ولا تلد ، ولما كانت هذه الريح لا تلقح شجرًا ولا سحابًا ولا خير فيها البتة شبهت بالمرأة العقيم (٣) .

ولا شك أن وصف الريح بالعقيم أضفى على السياق من البُعد النفسي ما لا يَخْفَى وذلك لأن النعت والمنعوت كليهما مفزعان مخيفان ، فالريح إذا

---

(١) انظر التسهيل ٤ / ١٦٣ ، قال البضاوي : { ذلك أنهم قالوا للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لن نتبعك حتى تأتي ُكلاً منا بكتابٍ من السماء فيه من الله إلى فلانٍ اتَّبع محمدًا } البيضاوي ٢ / ٥٤٥ .

(٢) الذاريات /٤١ ، { العقَم والعُقم : بالفتح والضم هَزْمة'' تقع في الرحم ، فلا تقبل الولد .. والدنيا عقيم : أي لا تَرُدُّ على صاحبها خيرًا ، ويوم القِيامة يوم'' عقيم'' ؛ لأنه لا يوم بعده .. والريح العقيم في كتاب الله : هي الدبور .. وقيل : هي لا تُلقحُ الشجر ، ولا تنشئ سحابًا ولا تحمل مطرًا } لسان العرب مادة (ع . ق . م) .

(٣) انظر التسهيل ٤ / ٧٠ ، الصاوي على الجلالين ٤ / ١٠٧ ، التحرير والتنوير مجلد ١٣ ٢٧ /١١ روح المعاني ٢٧ / ١٥

obeikandl.com

أفردت دلّت على العذاب [١] فكيف إذا أُفردت ووُصفت بـــ " العقيم " انعدم عـــند ذلك أي خير فيها ، وباتت مدمرة هالكة خالصة ، لا يُرتجى منها أدنى خير وهنا محك المبالغة .

وقريب'' من هذا قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ منه حتى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عذابُ يومٍ " عقيمٍ " ﴾ [٢] .

سُمِّي يوم القيامة عقيمـــًا لأنه لا يوم بعده قال الشـــريف الرضـــي : { وهـــذا مـــن أحســـن الاستعارات ؛ لأن العقيم : المرأة التي لا تلد ، فكأنه ســـبحانه وصف ذلك اليوم بأنه لا ليل بعده ولا نهار ؛ لأن الزمان قد مضى والتكليف قد انقضى ، فجعلت الأيام بمنزلة الوالدات لليالي ، وجعل ذلك اليوم من بينها عقيمـــًا لا ينتج ليلاً بعده ، ولا يستخلف بدلاً له وقد يجوز أيضـــًا أن يكـــون المـــراد والله أعلم أن ذلك اليوم لا خير بعده لمستحقي العقاب .. فوصفـــه بالعقم ؛ لأنه لا ينتج لهم خيرًا ولا يتيح لهم فرجًـــا } [٣] ويرى " الزمخشـــري " أن اليوم العقيم : يوم بدر وإنما وصف يوم الحرب بالعقيم ؛ لأن أولاد النساء يُقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم'' لم يلدن ، أو لأن المقاتلين يقـــال لهـــم أبـــناء الحرب ، فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز [٤] .

والخلاصـــة أن العُقم وصف'' وُصفت به الريح لانعدام الخير فيها فلا تحمل مطرًا ولا تُلقح شجرًا ، وكذا اليوم سواء لفقدان مثله أو لانعدام الفرج فيه أو أن يكون يوم بدر لقتل الولدان ، وكلاهما حمل بُعدًا نفسيًا جوهريًا في إيضـــاح الدلالـــة التـــي يحملها الانقطاع في كلٍّ . وجدير بالذكر أن تفسير الزمخشري " اليوم " بـــ " يوم بدر " هو الأقرب لدلالة المبالغة والله أعلم .

---

(١) قـــال الراغـــب الأصفهاني : { الريح معروف ، وهي فيما قيل الهواء المتحرّك وعامة المواضع التي ذكـــر الله تعـــالى فيها إرسال الريح بلفظ الواحد فعبارة عن العذاب ، وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع فعبارة عن الرحمة } المفردات ٣٧٠

(٢) الحج / ٥٥

(٣) تلخيص البيان /١٩٤

(٤) انظر الكشاف ٣ / ٣٧

ومنه قوله تعالى : ﴿ وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغـــًا ﴾ [١] .

الأمــر للنبــي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن ينصح المنافقين ويعظهم بكلامٍ بليغ مؤثر علّهم ينزجرون ويرتدعون قال ابن عاشور : { البليغ فعيل بمعنى **بالغ بلوغـًا شديدًا** بقوة ، أي : بالغًا إلى نفوسهم متغلغلاً فيها } (٢) والبلـيغ عند " الألوسى" يعني القول المؤثر الواصل إلى كنه المراد مطابقـًا لمـا سـيق لــه مــن المقصــود (٣) وهو يعنــي عنـــد " ابي حيــان " الزجــــر والردع (٤) بينما يعني عند " البيضاوي " المبالغة فيه بالترغيب والترهيب (٥).

ومهمـا يكـن من أمر فإن الوصف " بليغـًا " كان عاملاً مهمـًا في بـيان نفسـية هؤلاء المنافقين ؛ إذ قد لا ينزجروا بالكلام العادي ، وتحدث الاسـتجابة ــ ربما ــ بالكلام البليغ المؤثر ؛ فقد يرغّبهم الأسلوب الرصين الفعّال في العودة إلى التوبة والاستقامة بعدما حدث منهم الميل والزيـغُ عن طــريق الحــق ، وبيّن'' أن طريق هدايتهم إنما يُبتَـغَـى في المبالغة في القول باستخدام الأساليب القوية المؤثرة .

ومنه قوله تعالى :

﴿ كَأَنَّه جِمالت'' صُفرٌ ﴾ (٦).

تشـبيه لعِـظَــمَ الشـرر المـتطاير بالجِـمال الصفر في لونها وكثرتها وتتابعــها واختلاطها وحركتها . دلالــة " الوصف " " صفر " وهو اللــون

---

(١) تمام السياق القرآني : " فكيف إذا أصابتهم مصيبة'' بما قدّمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن اردنا إلا إحسـانًا وتوفـيقـًا * أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغـًا " النساء/٦٢ ، ٦٣

(٢) التحرير والتنوير مجلد ٣ ٥ / ١٠٨

(٣) انظر روح المعاني ٥ / ٦٩

(٤) انظر البحر المحيط ٣ / ٢٩٣

(٥) انظر البيضاوي ١/٢٢٢

(٦) تمام السياق : " إنها ترمي بشرر كالقصر * كأنه جمالت'' صفر " المرسلات /٣٢ ، ٣٣

الأصـــفر [1] هـــو أن الشرار لما فيه من النارية والهوائية يكون أصفر ، ومعلوم أن لون النار يضرب إلى الصفرة مما يوحي بالرهبة والخوف .

ومـــدار المـــبالغة إذا كان الشرر بهذه الضخامة ــ كالقصر ــ فكيف بجهنم ذاتهـــا ــ أعاذنـــا الله مـــنها ــ كذلك وصف الشرر بالجمال الصفر للكثرة والتتابع والاختلاط وسرعة الحركة .

---

(١) قـــيل : " صـــفر " " هـــنا بمعـــنى ســـود . انظر التسهيل ٤ / ١٧٢ ، البحر المحيط ٨ / ٣٩٨ ، القرطـــبـــي ١٠ / ٧١٩٩ والبيضـــــاوي ٢ / ٥٥٨ ، روح المعـــانـــي ٢٩ / ١٧٦ ، التحـــــرير والتـــنوير مجـــــلد ١٤ ٢٩ / ٤٣٧ ، وكلهـــم ابتدأ كلامه بالمعنى الظاهري " اللون الأصفر " وهو الأولى ــ في رأيي ــ لأنه الألصق بلون الجمال والله أعلم .

obeikandl.com

ثانيًا : الصورة الجزئيـــة

تتماز الصورة الجزئية بأنها تعتمد ــ أساسًا ــ على الألـــوان البيانية { التشبيه ــ المجاز ــ الكناية } حيث تقوم بنقل المعاني عبر مخاطبة الحسّ وإثـــارة الانفعالات الوجدانية ، الأمر الذي يُسهّل على المتلقي تمثّل المعاني دفعة واحدة وهذا أدعى لتأكيدها ورسوخها في النفس .

وربمـــا لامســـت هـــذه الألـــوان البيانيـــة أوجهـــًا أخـــرى نفسية وحركـــية ...الخ ، وهذا بدوره يخلق عملاً فنيـــًا متكاملاً تُثير تحركـــًا واســـعًا للخـــيال وإنماءً فياضـــًا للمشاعر ، وتخاطبـــًا حميمًا للوجدان ، كما يُحدث في الوقت ذاته مَيْلاً رهيفًا للأسماع وجذبًا مؤثرًا للقلوب { وفي القرآن العظيم طاقة روحية هائلة ، ذات تأثير بالغ الشأن في نفس الإنسان ، فهو يَهُزُّ وجدانه ويرهف أحاسيسه ومشاعره ، ويُصقل روحه ، ويوقظ إدراكه وتفكيره ، ويُجلي بصيرته ، فإذا الإنسان نتيجة لتأثير القرآن يُصبح إنسانًا جديدًا كأنه خُلق خلقـــًا جديدًا } (١) .

وســـيخصُّ التناول ماله تعلـــُّق بالمبالغة وما تداخلت فيه عناصر القوة والشـــدة أو الكثرة والزيادة ، أو ما لقّه الإعجاز وصولاً إلى الغاية التي لا غايـــة بعدهـــا ولما بان القرآن عن سائر كتابات البشر ، وقعت فيه المبالغة أعظـــم مـــا تقع كشفـــًا للحقيقة من أبعادها المختلفة ، فما عظّمه القرآن فهو عظـــيم ، ومـــا بولغ فيه فهو بليغ ، وما استغرقَ الوصفُ فيه فهو كما جاء الوصف من دون تهويلٍ أو إسراف .

وسوف أتناول هذه الألوان بهذا الترتيب :

١- التشبيه

٢- المجاز

٣- الكناية

---

(١) مفهوم الإعجاز القرآني ــ د . جمال العمري ــ دار المعارف ١٩٨٤م / ٢٦٢

١ – التشبيه

معلـــوم" أن المعاناة ، والتأمـُّل أفضل من المعنى المكشوف ، فعلى الرغم أن التشبيه أداة بيان وكشف وإيضاح إلا أنه يحتاج إلى قدرٍ من إعمال الفكــر وبعــضٍ مــن الغموض ذلك { أن المعنى إذا أتاك ممثلاً ، فهو في الأكــثر ينجلــي لك بعد أن يُحوجك إلى طلبه بالفكرة ، وتحريك الخاطر له والهمة في طلبه وما كان منه ألصق ، كان امتناعه عليك أكثر ، وإباؤه أظهر واحــتجابه أشد ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشــتياق إليه ومعاناه الحنين نحوه كان نيله أحلى ، وبالمزية أولى ، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف ، وكانت به أضنَّ واشغف } (١).

وفي رحاب جماليات التلقي في ظل بنية التشبيه ، تتبدَّى طاقته الدلالية فــي إقامة تواصل وحوار بين المتلقي والنص ، يقوم على ما فيه من محاور مــنوطة بحال المتلقي ، ومتعلقة في الوقت نفسه بالحفز والتنبيه له من خلال البــناء التشبيهي لا سيما البليغ منه القــائم على إضمار الأداة وطيّ وجــه الشــبه ؛ لأن { حــذف الوجه والأداة يوهم اتحاد الطرفين وعدم تفاضلهما ، فــيعلو المشــبه إلى مستوى المشبه به وهذه هي **المبالغة** في قوة التشبيه أما ذكــر الأداة فيفيد ضعف المشبه وعدم إلحاقه بالمشبه به كما أن ذكر الوجه يفيد تقييد التشبيه وحصره في جهةٍ واحدةٍ } (٢).

وربمــا كــان الاتكاء في بنية التشبيه ــ وصولاً لأسراره ــ ينصبُّ أساسًا على المشبه به { لأنه هو الشيء الذي جاء به المتكلم ليقرن به المشبه فيكتســب منه شيئــًا ، وبمقدار تعرفنا على دلالات المشبه به وإشاراته في سياق النص يكون قربنا من غايتنا } (٣).

وقد درج البلاغيون القدامى على دراسة التشبيه مستخدمين مصطلحات عديــدة منها التشبيه المفرد والمركب والمتعدد والضمني والمقلوب والمرسل والمؤكد .... الخ { وقد جردوا الصورة الفنية ، وفتتوا

---

(١) أسرار البلاغة /١٣٩

(٢) علوم البلاغة ٢٨٢

(٣) التصوير البياني د . محمد أبو موسى مكتبة وهبة ط الثالثة ١٩٩٣م /٢٦

أجـزاءها ، في عملٍ وصفي لا يتعدَّى الشكل الظاهري ، بعيدًا عن روحها وخصائصها ، ونكهتها ، بعيدًا عن خطوة داخلية يخطونها ، يبحثون بها عن حقـيقة المضـمون ، وعلـة الاختيار وطبيعة الأداء وقدر العطاء ، وعلاقة الخلية بالبناء الكلي ، وتأثير البناء الكلي على الخلية . إن فهمنا للصورة على أنهـا عنصـر فـاعل متفاعل ، يجعلنا نرفض كثيرًا من هذه المصطلحات الجوفاء } (١) .

فـلا حاجـة هـنا لتـناول هذه المصطلحات التي تكاد تُفقد التشبيه رونقه ، وتصرف ذهن المتلقي إلى مراعاة حدود كل قسم بدلاً من أن يُعمل الفكر في تذوق الأسلوب والتماس لطـائِفـه وخفاياه ومن نماذجه قوله تعالى :

﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَـوَاءٌ ﴾ (٢) .

خلـت قلوبُ هؤلاء الظلمة من العقل من شدة الفزع لما عاينوا العـذاب قال أبـو السـعود : { خالـية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهشة كأنها نفس الهواء الخالي من كل شاغل ومنه قيل للجبان والأحمق : قلبه هواء أي لا قوة ولا رأي فـيه واعتـبار خلوها عن كل خير لا يناسب المقام } (٣) والسياق تشـبيه محض ؛ لأن القلوب ليست بهواءٍ حقيقة ، ويحتمل أن يكون التشبيه في فراغها من الرجاء والطمع في الرحمة ، فهي منخرقة مُشبَّهة الهواء في تفرغه من الأشياء ، ويُحتمل كذلك أن يكون في اضطراب أفئدتهم وجيشانها فـي الصدور ، وأنها تجيء وتذهب وقد تبلغ الحناجر فهي في ذلك كالهواء الذي هو أبدًا في اضطراب (٤) .

ومهما يكن من أمرٍ ، فإن تشبيه القلوب بالهواء على هذا النحـو سـواء

---

(١) تشبيهات المتنبي ومجازاته / ١٣٩ ، ١٤٠

(٢) تمام السياق : " ولا تحسبنَّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار * مُهطعين مُقنعي رءوسهم لا يرتدُّ إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء " إبراهيم/ ٤٢ ، ٤٣

وفـي اللسان : { " وأفئدتهم هواء " يُقال فيه : إنه لا عقول لهم . أبو الهيثم : " وأفئدتهم هواء " قال : كـأنهم لا يعقلـون مـن هول يوم القيامة وقال الزجاج : وافئدتهم هواء أي منخرقة لا تعي شيئـًا من الخـوف .. أي بعيدة خالية العقول } اللسان مادة (هـ . و . ي) .

(٣) أبو السعود ٥ / ٥٦

(٤) انظر البحر المحيط ٥ / ٤٢٤

لفراغها أو لاضطرابها يشي بالهول الذي تملـك هؤلاء الـظلـمة ، فأحت قلوبهم على هذا النحو خالية من كل فهم ورُشْد وذلك لفرط الحيرة والدهشة .

ومنه قوله تعالى :

﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَـارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (١)

فالزلـزال الذي يدوِّي بين يدي الساعة أمر عظيم وخطب '' جلـل ، لا يكاد يُتَصوَّر لهوله حيث ترى مرضعـًا ذاهلة عما أرضعت وأخرى حاملاً يسقط حملهـا للرجفة المُـروِّعة ـ وهنا ـ بهذا الموضع المشهد الثالث ؛ إذ ترى الناس سُكارى ، يتجلَّى سُكرهم في نظراتهم الذاهلة ، وفي خطواتهم المترنحة إنـه مشهد مكتظ بذلك الحشد المتماوج الذي لا تكاد تخطئه عين ، إن إيقاع الحركة للناس يومذاك لا ينبع ـ عـادة ـ في حيـاة الناس إلا من مثل " سَـكْران " خَـامَـر عقلـه الشراب ، وأنَّى لهم ذلك يوم القيامة ، وإنما سـكرهم لمـا هـم فيه من شدة الغم ، وضغط الحيرة ، وتخليط العقل قال الزمخشـري : { تراهم سكارى على التشبيه وما هم بسكارى على التحقيق ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم ، وطيَّر تمييزهم ، وردهـم فـي نحـو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه ، وقيل وتراهم سُكـارى من الخوف ، وما هم بسكارى من الشراب } (٢) .

إن قـدرة هـذه الصورة الكلية على الإبانة إنما صيَّرها بهذا الظهور الجانب الحركـي ، بمـا تضمنته الآيات من أحداث متتابعة ، ومشاهد متلاحقة فإذا رجعنا إلى السياق الكلي للآيات وجدنا : مشهد المرضعات الذاهـلات عمـا

---

(١) تمام السياق : " يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمّـا أرضـعت وتضـع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شـديد " الحج/ ١ ، ٢

قـال ابـن منظور : { السَّكْران : خلاف الصَّاحي ، والسُّكْر : نقيض الصَّحْو . والسُّكر ثلاثة : سُكْر الشـباب ، وسُـكْر المال ، وسُكْر السلطان .. وقوله تعالى : " وترى الناس سكارى وما هم بسكارى " وقـرئ : " سَـكْرى " ومـا هم بسَكرى " ؛ التفسير أنك تراهم سُكارى من العذاب والخوف ، وما هم بُسـكارى من الشراب ، يدل عليه قوله تعالى : " ولكن عذاب الله شديد " ؛ ولم يقرأ أحد '' من القـرَّاء سكـارى ، بفتح السين وهي لُغـة ، ولا يجوز القراءة بها ؛ لأن القراءة سُنَّة " اللسان مـادة (س . ك . ر) .

(٢) الكشاف ٣ / ٢٥

أرضـــعن .. مشـــهد الحوامل الملقيات حملهن .. مشهد الناس وهم سكارى إيقاعـــا وحركة .. إن كلاً منها يحمل دلالات قوية ؛ بل عنيفة على شدة هـــول اليوم ، وانعكاسه على جموع الناس في شتـــى أوضاعهم البشرية بما يـــؤول فـــي رحاب تواصل المتلقي مع هذه المشاهد إلى حفز خلاّق لمخيلته حـــتى لا أحسبُ أن قارئـــاً يتلو هذه الآيات إلا وينعكس في خياله هذا الوقع التصويري الحقيقيّ الهائل .

ومنه قوله تعالى :

﴿ إِنَّهَـــا شَـــجَرةٌ تَخْـــرُجُ فـــي أَصْلِ الجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (١) .

إنه تشبيه'' عجيب ، ووجهُ غرابته في تناهي الكراهية وقبح المنظر ، ومعلـــوم فـــي التشـــبيه أن المشبه به أعرف للمتلقي من المشبه ، وأوضح صـــورةً إلا مثل هذا التشبيه ، فإن رؤية الشياطين أمر مجهول للمتلقي لكن لمـــا كـــان الشيطان يمثل القمة في القبح ، والغاية في الشناعة اُختيرت هذه الصـــورة المُفـــزعة لـــتلك الشجرة السوأى {شُبِّه بما اشتهر في النفوس من كراهة رءوس الشياطين وقبحها ، وإن كانت غير مرئيةً ، ولذلك يصورون الشيطان في أقبح الصور ، وإذا رأوا اشـــعث منتفش الشَّعر قالوا : كأنه وجه شـــيطان وكـــأن رأســـه رأس شيطان ، وهذه بخلاف المَـــلـــك يُشبِّهون به الصورة الحسنة (٢) وكما شبَّه امرؤ القيس المسنونة الزرق بأنياب الغول في قوله :

ومسنونة'' زرق'' كأنياب أغوال .

وإن كان لم يشاهد تلك الأنياب وهذا كله تشبيه تخييلي } (٣) .

ونصَّ ابنُ جزي على أن التشبيه مبالغة بقوله : { وشُبِّه برءو س الشياطين

---

(١) الصافات/ ٦٤ ، ٦٥

(٢) كمـــا قـــال تعالى على لسان نسوة المدينة عن يوسف ـــ عليه السلام ـــ : " ما هذا بشراً إن هذا إلا مَلـــك كريم " يوسف / ٣١

(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٤٨ ، وانظر البيضاوي ٢ / ٢٩٥ ، الكشاف ٣ / ٣٠٢ ، القرطبي ٨ /٥٧٢٥ ، ٥٧٢٦ ، الصاوي على الجلالين ٣ / ٢٨١ ، ٢٨٢ ، التحرير والتنوير مجلد ١١ ٢٣ / ١٢٤

مبالغة في قبحه وكراهته } (١).

واللافت أن الناس لا يعرفون رءوس الشياطين كيف تكون ؟!

بعد" شكليٌّ مخيف" مُفزع لمجرد تمثُّل صورته .. هذا المشهد المخيف لهذه الثمرة المُرعبة المنبثقة من تلك الشجرة الملعونة في القرآن .. لم يقف عند هذا الحد .. بل إن إيديهم ستمتد إلى تلك الثمرة بشكلها المفزع لتكون لهم طعامًا .. ولأفواههم مذاقًا .. ولبطونهم امتلاءً فأي مشهد يفوق هذا ؟! وأي فزع أبلغ من هذا ؟! .. جوع" ملهِب" يقود لطعامٍ مُر .. مرآه مُخيف" .. يَشُوك الحلوق ، يَحْرِقُ البطون ، يُقَطِّعُ الأمعاء !

ومنه قوله تعالى :

﴿ صُم" بكم" عُمي" فَهُم لاَ يَرْجِعون ﴾ (٢).

هذا وصف للمنافقين ؛ فهم كالصمِّ لا يسمعون الحق ، وكالخرس لا يتكلمون بما ينفعهم ، وكالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعونه ، والصورة على هذا تشبيه بليغ ، وليس هو من الاستعارة عند محققي أهل البيان ، قال الزمخشري : { (فإن قلت) هل يُسمَّى ما في الآية استعارة (قلت) مختلف فيه والمحققون على تسميته تشبيهًا بليغًا لا استعارة ؛ لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون } (٣).

واللافت أنهم لم يعرضوا عن الهدى ابتداء ، ولم يصموا آذانهم عن السماع وعيونهم عن الرؤية وقلوبهم عن الإدراك ، كما صنع الكافرون فقد حددوا موقفهم منذ البداية ، أما هؤلاء المنافقون فقد استحبوا العمى على الهدى وآثروا الضلالة على الإيمان بعدما استوضحوا الأمر وتبينوه إلى درجة

---

(١) التسهيل ٣ / ١٧٢ ، ثمَّ توجيهان آخران مرجوحان للتشبيه بناء على تفسير المراد بـ " رءوس الشياطين " الأول : تفسيرها بالحيات وقد مال إلى هذا التفسير صاحب الجلالين انظر الصاوي على الجلالين ٣ / ٢٨١ ، ٢٨٢ والآخر : تفسيرها بشجرة معروفة باليمن تُسمى " الأستَن " انظر التحرير والتنوير مجلد ١١ ٢٣ / ١٢٤ والقول الذي أوردته في المتن هو الأولى بالسياق والمُقدّم عند المفسرين والأظهر في الدلالة ولأن القاعدة تقول : " ما لايحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج إلى تأويل " ولا يُصرف عن ظاهر اللفظ إلا بدليل قوي وحجة ظاهرة .

(٢) البقرة / ١٨

(٣) الكشاف ١ / ٣٩

أنهــم لم يتعظوا حتى بالمعجزات الظاهرة على يدي رسول الله ــ صلى الله علـيه وسـلم ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا ، فلما أضـاءت مـا حوله ، ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم'' بكم'' عمي'' فهم لا يرجعون ﴾ (١) .

ومـن هـنا جـاءت الصورة في سياق التشبيه البليغ وهو بدوره يتيح مسـاحة إيجابية للمتلقي في أن يستكشف وجه الشبه ويتمثـل الأداة ، ويبدو في التشبيه البليغ كأن طرفيه صارا شيئـًا واحدًا ومن ثمَّ يتجلى وجه المبالغة وربما أدَّى طي الأداة ، وحذف الوجه ، وامتزاج الطرفين بما ينجم عنه من حفـز لمخيلة المتلقي في كشف أوجه الشبه بينهما وتآزرهم معـًا إلى بروز عامل التفاعل للمتلقي بحيوية مع السياق وذلك للوقوف على ما تنطوي عليه الدلالة القرآنية من تعددٍ في الوجوه .

ومنه قوله تعالى :

﴿ الَّذِيـنَ يأْكلون الرِّبا لاَ يقُومونِ إلا كَما يقُوم الَّذي يتَخَبّطه الشيطانُ من المَسّ ذلك بِأنّهم قالوا إنّما البيعَ مثلُ الرِّبا ﴾ (٢) .

لا يقوم الذين يتعاملون بالربا ويمتصون دماء الناس يوم القيامة (٣) إلا كما يقـوم المصـروع مـن جنونه في تعثره وسقطاته . حملة مُفزعة وتصوير مُرعـب ، مـا كان أي تهديد معنوي ليبلغ إلى الحسّ ما تبلغه هذه الصورة المجسـمة الحـية المتحركة .. صورة الممسوس المصروع.. وهي صورة معـروفة معهـودة للناس . فالسياق يستحضرها لتؤدي دورها الإيحائي في إفـزاع الحسّ لاستجاشة مشاعر المرابين ، وهزَّها هزة عنيفة تخرجهم من مـألوف عادتهم في نظامهم الاقتصادي البائد ، ومن حرصهم على ما يحققه لهـم من فائدة وهي وسيلة في التأثير التربوي ناجعة'' في مواضعها . بينما هـي في الوقت ذاته تعبِّر عن حقيقةٍ واقعةٍ .. ولقد مضت معظم التفاسير على أن المقصود بالقيام في هذه الصورة المفزعة ، هو القيـام يوم البعث ،

---

(١) البقرة / ١٧ ، ١٨

(٢) البقرة /٢٧٥

(٣) فـي قراءة عبد الله بن مسعود : " لا يقومون يوم القيامـــة إلا كما يقوم " انظر المحرر الوجيز ٢ / ٢٧٠

بَيْد أن هذه الصورة مازالت واقعة في حياتنا المعاصرة ، ثم إنها تتفق مع ما سيأتي بعدها من الإنذار بحرب من الله ورسوله . وتكمن المبالغة في إبراز هذه الصورة المُنفِّرة من تأثير الربا على المرابين ، وكشفهم في هذا التصوير الدال على مدى الاضطراب والرعب .

إن واقع الحياة ليشهد أن هؤلاء المرابين لا يتحركون إلا حركة الممسوس المضطرب القلق المتخبط الذي لا ينال استقرارًا ولا طمأنينة ولا راحة وإذا كان ثمَّ شك في الماضي ، فإن العالم الذي نعيش فيه اليوم ــ في أنحاء الأرض ــ هو عالم القلق والاضطراب والخوف ، والأمراض العصبية والنفسية ، وذلك على الرغم من كل ما بلغته الحضارة المادية .. وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادي ثم هو عالم الحروب الشاملة والتهديد الدائم بالحروب المُبيدة وحرب الأعصاب والاضطرابات التي لا تنقطع هنا وهناك (١) .

ومن المبالغة أيضًا قوله تعالى : ﴿ إِنَّما البيعُ مِثْلُ الرِّبا ﴾ كانت تلك هي شبهة المرابين ، وهي أن كلاً من البيع والرِّبا يحقق فائدة وربحًا .. لكن شتَّان بين البيع الذي يُقدِّم للمشتري سلعة مقابل جهد ، وعرق ومشقة .. والبائع مُعرَّضٌ خلال ذلك للربح والخسارة وبين الرِّبا الذي يُحدِّد الفائدة ، فإذا بالمرابي يتكسَّب مالاً سُحْتًا لا يحل له .

لكن النُّكتة البلاغية في إقامة الصورة على هذا التشبيه " المقلوب " لقصد المبالغة في جعل الربا أصلاً يقاس عليه ، وجعل البيع وهو الأصل فرعًا قال الزمخشري : { (فإن قلت) هلاَّ قيل إنما الربا مثل البيع ، لأن الكلام في الربا لا في البيع فوجب أن يُقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه ، وكانت شبهتهم أنهم قالوا : لو اشترى رجل'' مالا يساوي إلا درهمًا بدرهمين جاز فكذلك إذا باع درهمًا بدرهمين (قلت) جيء به على طريق المبالغة وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حِلِّ الرِّبا أنهم جعلوه أصلاً وقانونًا في الحِلِّ حتى شبهوا به البيع } (٢) .

---

(١) انظر الظلال ١ / ٣٢٦

(٢) الكشاف ١ / ١٦٥

ومنه قوله تعالى :

﴿ نِسَاؤكم حَرْثٌ لَكُم ﴾ (١).

أي نساءكم مكان زرعكم وموضع نسلكم ، وفي أرحامهن يتكون الولد شُبِّه الجماع بالحرث ؛ إذ النطفة كالبذر ، والرحم كالأرض ، والولد كالنبات وقيل : هو على حذف مضاف أي : موضع حرث لكم (٢) وهذه الصورة التشبيهية تعدُّ من بديع كنايات القرآن (٣).

ويستنبط من السياق أن المُحبَّب في المرآة هو كونها ولودًا وهذا هو المقام الأول ، والمُرَاعَى فيه ثانيًا : هو تحرِّي موضع الحرث وهو محل الإخصاب والإنسال ، فطيُّ الأداة وإبراز السياق القرآني على هذا النحو أتاح كل هذه الدلالات .

من جهةٍ أخرى تُمثـِّل هذه الصورة ومثيلاتها في القرآن نماذج فريدة لما ينبغي أن يكون عليه الأدب ، ويرتسمه الأدباء ، فإن القرآن في هذا يمنح البشرية تعلُّم عالمية الخطاب ، وأسباب تقدُّم الحضارة الإنسانية التي ينبغي أن تشعَّ في البشرية جمعاء ، وهو بذلك يُرسي أسس الفكر البشري الرفيع الذي ينشد الوعي الصائب ، ويبث الروح السامية في الوجود ليعمر الكون وتسعد البشرية : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيهِ ﴾ (٤).

لقد سعى الأدب القرآني إلى تخليص الفكر الإنساني من رواسب الماضي وشوائب الإباحية ، والتكشف والسفور التي ظلَّ قيدها قرونًا طويلة وهذه الرؤية القرآنية في التأدُّب الخطابي تمثل أطروحة عالمية تُعدُّ مفخرةً للحضارة الإنسانية ومنطلقًا صحيحًا لحركة الأدب الإنساني العالمي .

(١) البقرة / ٢٢٣ ، قال الراغب الأصفهاني : { الحَرْث : إلقاء البذر في الأرض وتهيؤها للزرع ويُسمَّى المحروث حَرثًا .. قال عز وجل : (نساؤكم حَرْث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) وذلك على سبيل التشبيه ، فالنساء زرع ما فيه بقاء نوع الإنسان كما أن بالأرض زرع ما به بقاء أشخاصهم } المفردات ٢٢٦

(٢) انظر رسالة حذف الكلمة في القرآن الكريم / ٣٠٩

(٣) انظر البحر المحيط ٢ / ١٨٠ ، الكشاف ١ / ١٣٤ ، التسهيل ١ / ٨٠ أبو السعود ١ / ٢٢٣ ، الصاوي على الجلالين ١ / ٩٣

(٤) المائدة /٤٨

وقريب من هذا قوله تعالى :

﴿ هنَّ لِباس لكم وأنتم لِباس لهنَّ ﴾ (١) .

اللباس أصله في الثوب واستُعمل ــ هنا ــ في المرأة تشبيهًا ، يُقال للمرأة هي لباسك ، وفراشك وإزارك لما بينهما من الممازجة ، ولمَّا كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كلٌّ منهما على صاحبه شُبه باللباس أو لأن كل واحد منهما يسترُ حال صاحبه ويمنعه من الفجور (٢) .

والسياق يبيِّنُ سبب الإحلال : ﴿ أُحِلَّ لكم لَيْلَةَ الصيامِ الرَّفَثُ إلى نِسائِكم ﴾ فقد مَنَّ الله على المؤمنين وخفَّف عنهم فأباح لهم غشيان النساء في ليالي الصوم وذلك لقلة الصبر عنهن ، وصعوبة اجتنابهن لكثرة المخالطة وشدة الملابسة واحتياج كل منهما لصاحبه .

واللافت في التشبيه أن اللباس ساتر وواقٍ .. وكذلك هذه الصلة بين الزوجين . تستر كلاً منهما وتقيه ، وجمال الصورة يبدو في صوغها على سبيل التشبيه البليغ ، فطيُّ الأداة يجعل طرفي التشبيه كيانًا واحدًا من خلال تماسهما والتحامهما ، ولا ينطبق ذلك على التَّماس اللفظي المُشاهد في السياق وحسب ؛ بل ينعكس بدوره على الدلالة المستوحاة منهما .

وتتبع " المبالغة " في السياق من إيماء الدلالة بمدى الترابط الوثيق بين الزوجين إذ من أجل شدة الترابط وعدم إمكان استغناء أحدهما عن الآخر أُحِلَّ الجماع لِليالي الصوم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ عَلِمَ اللهُ أنكم كنتم تَخْتَانُون أنفسَكم ﴾ أي تخونونها بمقارفة الجماع ليلةَ الصيام ، وكان هذا مُحرَّمًا في أوَّل الإسلام ثم نسخ ثم جاء عفو الله وفضله في الآية نفسها

---

(١) تمام السياق :" أحل لكم لية الصيام الرَّفث إلى نسائكم هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ علم الله أنكم كنتم تختانون ... " البقرة / ١٨٧

قال الراغب الأصفهاني : {جُعل اللباسُ لكل ما يُغطيّ من الإنسان عن قبيح ، فجُعِل الزوج لزوجه لباسًا من حيثُ إنه يمنعها ويصدُّها عن تعاطي قبيح قال تعالى : " هنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهنَّ " فسمَّاهنَّ لباسًا كما سمَّاها الشاعر إزارًا : فدىً لكَ من أخي ثِقةٍ إزاري } المفردات ٧٣٤ / ٧٣٥

(٢) انظر البيضاوي ١ / ١٠٦ ، البحر المحيط ٢ / ٥٥ ، ٥٦ ، الصاوي على الجلالين ١ / ٧٨ ، التسهيل ١ / ٧٢

obeikandl.com

في قوله : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (١) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ (٢) .

فاليهود والنصارى يعرفون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ معرفة لا افتراء فيها كما يعرف أحدهم ولده معرفة يقين ، قال ابن جُزي : { مبالغة في وصف المعرفة ، وقال بن سلام معرفتي بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ اشدُّ من معرفتي بابني ، لأن ابني قد يمكن فيه الشك } (٣) . وجرت المبالغة على عرف الناس في معرفة أبنائهم ، إذ هو "مَثَل" يضرب في لغة العرب على اليقين الذي لا مرية فيه فمن المحال أن يخطئ المرء في التمييز بين أبنائه وأبناء الآخرين ، والتفات في السياق اختصاص ذكر الأبناء ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ دون الإناث وذلك ؛ لأن الذكور أشهر وأعرف وهم لصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق . (٤) .

---

(١) البقرة / ١٨٧

(٢) البقرة /١٤٦

(٣) روي أن عمر سأل عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنهما ، وقال : إن الله قد أنزل على نبيه " الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه " الآية . فكيف هذه المعرفة ؟ فقال عبد الله : يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ، ومعرفتي بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ اشدُّ من معرفتي بابني ، فقال عمر : وكيف ذلك ؟ فقال أشهد أنه رسول الله حقـًا ، وقد نعته الله في كتابنا ، ولا أدري ما يصنع النساء ، فقال عمر وفقك الله يا ابن سلام وفي رواية فقبل عمر رأسه انظر البحر المحيط ١ / ٦٠٩ .

(٤) انظر الكشاف ١ / ١٠٢ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

في الآية تشبيه توضيحي لتضعيف الله الحسنات والأعمال الصالحة لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته ، الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، قال الزمخشري : (ومعنى انباتها سبع سنابل أن تخرج ساقاً ، يتشعب منها سبع شعب لكل واحدة سنبلة ، وهذا التمثيل تصوير للإضعاف كأنها ماثلة بين عيني الناظر) (٢) .

وتبدو المبالغة في هذا التضعيف الهائل (سبعمائة) جزاء حسنة واحدة ، أضف إلى ذلك هذا التضعيف اللا متناهي (والله يضعاف لمن يشاء) وهذا يشير إلى عظيم منة الله ــ سبحانه ــ وسعة رحمته وإحسانه على خلقه .

---

(١) البقرة / ٢٦١

(٢) الكشاف ١٥٩/١ ، ذكر بعض العلماء أنه يمكن الإفادة من الآية في تمثل العدد (سبعة) للحد الأمثل لحبة (القمح) بحيث تصبح النهاية العظمى للحبة الواحدة (سبع سنابل) لأنها إن زادت قلّ حجم الحبة الواحدة ، والمحصول وكذلك إن زادت السنبلة الواحدة عن (مائة) قلّ حجمها كذلك . بَيْد أن هذا مازال رهن البحث ولم يصل بعد إلى حقيقة ثابتة ، ويُخشى دائماً من الربط بين العلم ــ لاسيما في طور النظرية ــ وآيات القرآن الثابتة المعجزة .

٢- المجـــــاز

عُـدَّ " المجاز " في البلاغة العربية وسيلةً في وسائل الدفـــاع عن " القرآن " ، وعن " العقيدة " ، ثم هو ضرب'' من ضروب الإعجاز القرآني ، الأمـــر الـــذي حتـــَّم على البلاغيين واللغويين أن يتناولوه بالدرس ، ويولوه عناية فائقة ، تنمُّ عن شغفٍ عميقٍ بكتاب الله .

وللمجـــاز القرآنـــي طبيعته ، وخصائصه التي ينمازُ فيها عن طبيعة المجـــاز فـــي الآداب البشـــرية ، فالأول مُعجز أعيا أساطـــين الفصاحـــة ، والبيان ، وتحدَّى بأسلوبه معاشر الإنس والجن ، والآخر صنعة بشرية ناشئة من أفانين القول ونوازع النفس ، وبواعث الوجدان .

إن أســـلوب القـــرآن المجازي خاطب العقل والعاطفة معـــًا ؛ إذ جمع الحـــقَّ ، والجمـــال ، والخير في بوتقـــةٍ واحدةٍ ، تأثر النفس ، وتهـــزُّ القلـــب ، وتخلـــب الألباب ، ثم هو يؤدي في الوقت ذاته إلى إحداث طرائق للتعبـــير جديـــدة تُســـهم فـــي اتساع دائرة ضروب التعـــبير عن طـــريق التصوير ، والتجسيم ، والتخييل .

وثـــمَّ أمـــر'' لا غـــناء عـــنه في مبحث " المجاز " وهو مدى ارتباط الاستعارة بالتشبيه ، ولعـــلَّ تصور القدماء للعلاقة بين الاستعارة ، والتشبيه جعلهم عند تذوقهم للاستعارة لا ينسون هذا الارتباط أبدًا ، فامتداد الاستعارة علـــى التشـــبيه مبنيٌّ على إسقاط أحد طرفي التشبيه إسقاطـــًا كُليـــًّا ، أو إســـقاطه مـــع إبقاء ما يرتبط به ، ومن ناحية أخرى قولهم وجوب تضمين المذكـــور مـــا يدل على المحذوف ، خلق من الإبداع عملية عقلية صارمة ، الأمـــر الذي يجعلنا نعيد النظر مرة أخرى في طبيعة الاستعارة ، وضرورة ربطهـــا بالتشبيه ، وأن نتأملها بعمق يوازي بُعْدها الدلالي ، ذلك أن معايشة الـــنص القرآنـــي مـــن خـــلال تلـــُّمس البناء اللغوي للكشف عن الصلة بين الاســـتعارة وأصلها التشبيهي يحرم المتلقي من إدراك دلالات داخلية ومعانٍ تصويرية يهدف إليها التعبير بالاستعارة .

من أجل هذا يبدو جليـــًا وجوب تناسي هذه العـــــلاقة بين التشبيه ،

والاستعارة ، لا تلاشيها ؛ لأن إبقاءها ولو لحاجة تعليمية أمر '' مُتقرِّر ،

لا خوف منه ، بَيْد أن الـمَلامة هو تحوُّل الصور الفنية عند التحليل الأدبي إلـى أصـلها ، وأن يكـون إدراك هـذه الصلة هو دَيـدَن المحلـِّلين ، والشُّـرَّاح ، وكاشفي وجوه الجمال في النص الأدبي حتى لا تضيع اللمسات الفنـية ، ونفقـد البراعة التصويرية التي تدعو المتلقي إلى بذل جهدٍ ذهني نَشِـط في تخيل الصورة ، وإدراك أبعادها ، لا إلى مصادرة فكره ، وجعله مقصـورًا على تبيُّن نوع الاستعارة هل هي تصريحية أو مكنية ؟! أو كشف بعدها التشبيهي ؟!

ومن هنا ــ في رأيي ــ يكفينا في الاستعارة أنها استعمال الشيء في غير ما وُضع له ، إذا انحرف المعنى عن مكانه الأصليّ ، واستقرَّ في مكانٍ آخر ، لتكون اللغة في هذا كالكائن الحيّ المرن { حينما يُختار لمكان آخر على سبيل الادِّعـاء ، فإنـه يـنقل هذه القدرات إلى مكانه الجديد ، ويضيف إليها هذا الـتلاحم الجديـد هذه العلاقات الحيوية التي سيُشِعُّها في البيئة الجديدة } (١) ، ليكون في النهاية صورة فنية ، ولوحة جمالية لها طابعها المتميز ، دون أن نجزِّئ جُهْد المتلقي في تفريعاتٍ جزئيةٍ ، أو نرهقه في البحث عن أصلها المُترامي .

وقـد دأب البلاغـيون القدمـاء على تقسيم " المجاز " ثلاثة أقسام : **المجاز اللغوي** : وهو ما قامت فيه عـلاقة المشابهة بين المستعار منه والمستـعار لـه ، **والمجـاز المرسـل** : وهو ما قامت فيه العلاقة على غير المشابهة ، **والمجاز العقلي** : وهو ما قام على الإسناد .. وسوف تجد دوران **المبالغة** في الأقسـام الـثلاثـة ، وقد أُدرجت جميعًا تحت مُسمًّى واحـد هـو " المجـاز " وحسب ، تأكيدًا لما استقرَّ عليه الرأي أن تكثيف جهد المتلقي في تـذوق الصـورة أولـى من تركيزه في اكتشاف نوع العلاقة وتحـديد لون المجـاز ، لأن الاهتمام بهذه النظرة الشكلية في دراسة الصورة الفنية يؤدي إلـى تشـتيت الظاهرة البلاغية ، وتقطيع أواصر الصورة ، وفقدان التذوق المنشود .

---

(١) تشبيهات المتنبي ومجازاته / ٣٥٢

ومن نماذجه قوله تعالى : ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (١) .

حيث شُبِّه الشيب بشواظ النار في بياضه ، وانتشاره في الشعر وفشوه فيه ، وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار ، ثم أُخرج مخرج الاستعارة ، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس ، وأُخرج الشيب مميزًا ولم يضف الرأس اكتفاءً بعلم المخاطب أنه رأس زكريا ، فمن ثمَّ فَصُحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة (٢) .

قال أبو السعود : { وكمال الجزالة مالا يخفى حيث كان الأصل اشتعل شيب الرأس ، فأسند الاشتعال إلى الرأس كما ذكر لإفادة شموله لكلها فإن وزانه بالنسبة إلى الأصل وزان اشتعل بيته نارًا بالنسبة إلى اشتعل النار في بيته } (٣) .

إن نبي الله زكريا ــ عليه السلام ــ يشكو إلى ربه كبر سنه البادي في وهن عظمه ، وانتشار الشيب في رأسه بَيْد أن التعبير القرآني " اشتعل الرأس شيبًا " جعل الشيب كأنه نار مشتعلة ، وجُعلت الرأس كلها مناط الاشتعال للمبالغة في انتشار الشيب في الرأس ، ويظل استمداد الشيب في الرأس حتى ليشمل شَعْر اللحية { قال حُذَّاق النحويين " واشتعل الرأس شيبًا " أي كثُر شَيْبُ رأسه ، ودخل في قوله " الرأس " شعرُ الرأس واللحية ، لأنه كُلُّه من الرأس } (٤) .

ويُعلِّق عبد القاهر الجرجاني على جمال هذا الموطن من الآية بقوله : { فإن قلت : فما السبب في أن كان " اشتعل " إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل .. فإن السبب أنه يفيد ، مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى ، الشمول " وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من

---

(١) تمام الآية : " قال ربِّ إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا ولم أكن بدعائك ربِّ شقيًا " مريم / ٤ ، قال الراغب { الشعل : التهاب النار ، يُقال : شُعلة من النار وقد أشعلتها .. قال تعالى : { واشتعل الرأس شيبًا } تشبيهًا بالاشتعال من حيث اللون ، واشتعل فلان'' غضبًا تشبيهًا به من حيث الحركة } المفردات / ٤٥٧

(٢) انظر الكشاف ٢ / ٤٠٥ ، البحر المحيط ٦ / ١٦٤ ، البيضاوي ٢ / ٢٦ .

(٣) أبو السعود ٥ / ٢٥٣ ، وانظر دلائل الإعجاز / ١٠١ .

(٤) لسان العرب مادة (ش . ع . ل) .

نواحـيه وأنه قد استغرقه وعَـمَّ جملته ، حتى لم يبق من السواد شيء ، أو لـم يـبق منه إلا مالا يُعتـدَّ به وهذا ما لا يكـون إذا قيل : " اشتعل شيبُ الـرأس ، أو الشـيب فـي الرأس " ، بل لا يوجب اللفظ حينئـذٍ أكثر من ظهوره فيه على الجملة } (١) .

ثـم يعلق سيد قطب على قول عبد القاهر الجرجاني في الآية بقوله : { رحم الله " عـبد القاهـر " لقد كان النبع منه على ضربة مِعول فلم يضربها . إن الجمـال فـي " اشتعل الرأس شيبـًا " .. هو في ذلك الذي قاله من ناحيـة الـنظم ، وفـي شـيء آخر وراءه ، هو هذه الحركة التخييلية السريعة التي يصـورها التعبـير : حركة الاشتعال التي تتناول الرأس في لحظة وحركة التفجـير التـي تفور بها الأرض في ومضة . فهذه الحركة التخييلية تلمس الحس وتثير الخيال ، وتشرك النظر والمخيلة في تذوق الجمال } (٢) .

وكـأن " عـبد القاهر " قد كـثّف الدلالة حول جانب الشمول والاستغراق ، وإحاطـة الشـيب بالرأس ، أما " سيد قطب " فقد كـثّف الدلالة حول البُعد الحركـي التخييلـي الدال على السرعة والإحاطة ، بقي البُعد اللوني ، وقد أغـرب ابـن عاشـور في إبراز هذا الجانب بإرجاع الصورة إلى التشبيه المركـّب بقوله : { شبـّه عموم الشيب شعر رأسه أو غلبته عليه باشتعال الـنار في الفحم بجامع انتشار شيء لامع في جسم أسود . تشبيهـًا مركبـًا تمثيليـًا قابلاً لاعتبار التفريق في التشبيه . وهو أبدع أنواع المركب . فشبّه الشـعر الأسـود بفحـم ، والشّعر الأبيض بنـار على طريق التمثيليـة المكنية } (٣) .

ومـا أراه إلا أنـه قـد أبعـد النجعة من طريقين : الأول في وصف الصـورة فهي عند المحققين من البيانيين والمفسرين : استعارة قولاً واحدًا الثانـي : فـي قوله : " اشتعال النار في الفحم بجامع انتشار شيء لامع في جسـم أسود " إذ ليس بالضرورة قيد اشتعال النار في الفحم ، فهي دائرة'' في مواد الحـرق المختلفة . لكـن هذا لا يُقلـّل من جهـده في هـذا اللفت

---

(١) دلائل الإعجاز / ١٠١

(٢) التصوير الفني في القرآن / ٣١

(٣) التحرير والتنوير مجلد ٨ ١٦ / ٦٤

اللوني ومحاولة إحداث تكثيف دلالي لافت لهذا البُعد وتوظيفه فنيـًا .

ومن أمثلته قوله تعالى :

﴿ فَوَجَدا فِيها جِدارًا يُرِيدُ أن يَنْقَضَّ فأَقامَه ﴾ (١) .

فإســناد الإرادة إلى الجدار من المجاز البليغ ، والاستعارة البارعة وكثيرًا ما يوجد في كلام العرب إسناد أشياء تكون من أفعال العقلاء إلى ما لا يعقل من الحيوان أو الجماد (٢) كما قال الراعي :

فِي مَهْمهٍ قَلِقَتْ به هاماتُها قَلَــقَ الفُؤوس إذا أَرَدْنَ نُضُولاً (٣)

وكما قال غيره :

يُرِيدُ الرُّمحُ صَدْرَ أبِىَ بَرَاءٍ ويَعْــدِل عن دِمَاءِ بَنِي عَقِيل (٤)

لقــد كان ميل الجدار ميلاً عظيمـًا حتى كاد من ميله البيِّن أن يسقط سقوطـًا وبراعة التعبير القرآني في خلع الحياة والإرادة على الجدار الجامد قال أبو السعود : { فاستعيرت الإرادة للمشارفة للدلالة على **المبالغة** في ذلك والانقضاض : الإسراع في السقوط } (٥) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وإن كانَ مَكْرُهم لِتَزُول مِنه الجبالُ ﴾ (٦) .

هــل رأيت مكرًا " يُزِيل جبلاً " ؟ ! تصوير المعنوي بالمحسوس ــ هنا ــ يثــير مشاعر شَــتَّى ، يكاد المرء يعجز عن إدراك وصفها .. وذلك لطبيعة هــذا المكــر الســيئ الــذي يبلغ من تأثيره أنه يزيل أثقــل ما في الأرض وأضخمه ! أمر مهول مروّع ! .

(١) الكهف ٧٧

(٢) انظر البحر المحيط ٦ / ١٤٣

(٣) اللسان ٣ / ١٧٧٢

(٤) البيت في تفسير البيضاوي ٢ / ١٩

(٥) أبو السعود ٥ / ٢٣٧

(٦) إبراهيم /٤٦ ، قال الراغب : { المكر : صرف الغير عما يقصده بحيلة } المفردات / ٧٧٢

قال أبو حيَّان : { فالمعنى أنه يقرب زوال الجبال بمكرهم ، ولا يقع الزوال وعلى قراءة (كان) بالنون يكون زوال الجبال قد وقع ، ويكون في ذلك تعظيم مكرهم وشدته ، وهو بحيث يزول منه الجبال ، وتتقطع عن أماكنها ، ويحتمل أن يكون معنى لتزول ليقرب زوالها ، فيصير المعنى كمعنى قراءة (كاد) .. والذي يظهر أن زوال الجبال مجاز ضرب مثلاً لمكر قريش ، وعظمه ، والجبال لا تزول ، وهذا من باب الغلو ، والإيغال ، والمبالغة في ذم مكرهم } (١) .

فلا ريب أن ثمَّ قسم'' من الناس شديدو المكر بالإسلام ، وبالرسول ، هذا المكر مستعظم ، ومستفظع لدرجة أن الجبال ــ على ضخامتها ــ مُهيَّأة للإزالة من جرَّاء ذلك المكر الذي بلغ الغاية في الشدة والمتانة ، ومن هنا تأتي رعاية الله لهذا الكون ، وأنه قيوم السموات والأرض ، ولو ترك الكون لمثل هؤلاء الفسدة يسعون فيه إفسادًا وإضلالاً لفسدت السموات والأرض ، ولكن جلت قدرة الله الحافظ . ﴿ كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله ﴾ (٢) ، ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ (٣) .

كذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ (٤) .

ولو ترى يا محمد هؤلاء الظلمة وهم في سكرات الموت وشدائده ، إذ يعتورهم من كرب الموت وغصصه ما يعتورهم ، كمن تتقاذفهم غمرات

---

(١) البحر المحيط ٥ / ٤٢٦ ، وقد فرقت في التمهيد بين الغلو والإيغال والمبالغة .

(٢) المائدة /٦٤

(٣) الأنفال / ٣٠

(٤) تمام السياق " ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون " الأنعام /٩٣ ، قال الراغب الأصفهاني : { أصل الغمر : إزالة الشيء ، ومنه قيل للماء الكثير الذي يزيل أثر سيله غمر'' وغامر } المفردات /٦١٤ وقال ابن منظور : {الغَمْر : الماء الكثير . ابن سيده وغيره : ماء'' غَمْر'' : كثير'' مُغرِق .. وفي الحديث : أعوذ بك من موت الغَمْر ، أي الغرق ... والغَمْرة : الشدة . وغَمْرة كُلِّ شيء منهمكه وشدته ، كغمرة الهمِّ والموت ونحوهما . وغَمَرات الحرب الحرب والموت وغمارها : شدائدها } اللسان مادة { غ . م . ر } .

obeikandi.com

الماء ولججه قال ابن عاشور : { الغَـمْرَة ــ بفتح العين ــ ما يغمُر ، أي يَغُمّ من الماء فلا يترك للمغمور مخلصـًا وشاعت **استعارتها** للشدة تشبيهـًا بالشـدة الحاصـلة للغريق حين يغمره الوادي أو السيل حتى صارت الغمرة حقـيقة عرفـية فـي الشدة الشديدة . وجمع الغمرات يجوز أن يكون لتعدد الغمرات بعدد الظالمين فتكون صيغة الجمع مستعملة في حقيقتها ، ويجوز أن يكون لقصد **المبالغة** في تهويل ما يصيبهم بأنه أصناف من الشدائد هي لتعدد أشـكالها ، وأحوالهـا لا يُعبر عنها باسم مفرد فيجوز أن يكون هذا وعيدًا بعذابٍ يلقونه في الدنيا في وقت النزع .

ولما كان للموت سكرات جعلت غمرة الموت غمرات } (١) .

فالتعبير عن الغمرات بالشدائد يعكس مدى الأهوال التي تتغشّى هؤلاء الظلمة ، وكـثـّف من هذه الدلالة تنكير " غمرات " وجمعها أضف إلى ذلك حذف جواب " لو " والتقدير لرأيت أمرًا عظيمـًا ، وذلك ضرب" بديع في القرآن يمـنح المتلقي قدرًا من السعة في تمثل قدر الأهوال العظام والسكرات الشداد التي تمر بهم عند الموت ، وهذا بدوره يؤدي إلى توثيق التواصل بين المتلقي وآي الذكر الحكيم .

كذلك قوله تعالى :

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِم الذلَّة والمسكنة ﴾ (٢) .

معـنى الضرب هنا الإلزام ، والقضاء عليهم من ضرب الأمير البعث على الجيش وكقول العرب ضربة لازم ، ويقال ضرب الحاكم على اليد ، وضرب الدهـر ضـرباته : أي ألزم إلزاماته ، وقيل معناه الإحاطة بهم ، والاشتمال عليهم ، مأخوذ من ضرب القباب ، ومنه قول الفرزدق :

ضَرَبَت عليك العنكبوتُ بنسجها وقَضى عليك بها الكتابُ المُنزَلُ

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ٤ ٧ / ٣٧٧

(٢) السبقرة /٦١ ، " الضرب : إيقاع شيء على شيء ، ولتصور اختلاف الضرب خولف بين تفاسيرها ، كضرب الشيء باليد ، والعصا ، والسيف ، ونحوها } المفردات / ٥٠٥

وكما قال الآخر :

إِنَّ السَّماحةَ والمروءةَ والنَّدى ... فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ على ابنِ الحَشْرَجِ

وقيل معناه التصقت بهم من ضربت الحائط بالطين ألصقته به ، فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة إما على الحقيقة ، وإما لتصاغرهم وتفاقرهم خيفة أن تضاعف عليهم الجزية (١) .

ومنشأ الاستعارة في إحاطتها بهم كما تُحيط القُبة بمن ضربت عليه ، ودلالة المبالغة في إبقاء أثر الفقر على اليهود ولزوم وصف المسكنة عليهم ، إذ لا يخلو يهودي من تلك الآثار ، فهي أوصاف لازمة لازبة لا ينفكون عنها ، وإن كانوا أغنياء لزوم الدرهم المضروب لسكته (٢) .

وقريب'' منه قوله تعالى : ﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ (٣) .

والمعنى أنها أخذته من جميع نواحيه ، ومعنى الإحاطة به أنه يوافي على الكفر والإشراك ، هذا إذا فُسِّرت الخطيئة بالشرك ، ومن فسَّرها بالكبيرة فمعنى الإحاطة به أن يموت وهو مُصِرٌّ عليها ، فيكون الخلود على القول الأول المراد به الإقامة إلى انتهاء ، وعلى القول الثاني المراد به الإقامة دهرًا طويلاً ؛ إذ مآله إلى الخروج من النار ، قال الكلبي : أوثقته ذنوبه (٤) .

ومناط الاستعارة في تشبيه الخطايا بجيشٍ من الأعداء نزل على قومٍ من كل جانب فأحاط بهم إحاطة السوار بالمعصم ، وسر المبالغة في تمام الاشتمال وقوة الاستيلاء ، حيث أحدقت به الخطيئة من كل جانب ، ولم تترك له منفذًا .

---

(١) انظر البحر المحيط ١ / ٣٩٨ ، الكشاف ١ / ٧٢

(٢) انظر الصاوي على الجلالين ١ / ٣٣

(٣) تمام الآية " بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون " البقرة/ ٨١ ، { وأحاطت به خطيئته ، فذلك أبلغ استعارة وذاك أن الإنسان إذا ارتكب ذنبًا واستمرَّ عليه استجره إلى معاودة ما هو أعظم منه ، فلا يزال يرتقي حتى يطبع على قلبه ، فلا يمكنه أن يخرج عن تعاطيه } المفردات / ٢٦٥ .

(٤) انظر البحر المحيط ١ / ٤٤٥ ، ٤٤٦

ومنه كذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمواتِ وَالأَرْضِ والجِبالِ فَأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَها الإنسانُ إنَّه كان ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ (١) .

أي عرضنا الفرائض والتكاليف الشرعية على السموات والأرض والجبال فأعرضن عن حملها وخفن من ثقلها وشدتها قال ابن جُزي : في قوله تعالى : ﴿ فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ﴾ : { يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون الله خلق لها إدراكًا فعرضت عليها الأمانة حقيقة فأشفقت منها وامتنعت من حملها ، والثاني : أن يكون المراد تعظيم شأن الأمانة ، وأنها من الثقل بحيث لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين من حملها ، وأشفقن منها فهذا ضرب'' من المجاز كقولك عرضت الحِمْل العظيم على الدابة فأبت أن تحمله ، والمراد أنها لا تقدر على حمله } (٢) .

وحجم المبالغة مقرون بالمفارقة ، فالأجرام العظيمة الضخمة كالسموات والأرض والجبال أبت وخافت من حملها والإنسان على ضعفه قَبِلها وتقلَّدها ولهذا قال تعالى : ﴿ وَحَمَلَها الإنسانُ إنَّه كان ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ ومن هنا قال الشريف الرضي : " فالسموات والأرض والجبال لم تحمل الأمانة ضعفًا عنها وحملها الإنسان أي تقلَّدها ، وتطوَّق المأثم فيها للمعروف من كثرة جهله وظلمه لنفسه " (٣) .

وقريب منه قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلى السماءِ وهي دُخَانٌ فَقَالَ لها وللأرضِ ائتِيَا طَوْعًا أو كَرْهًا قَالَتا أَتَيْنَا طَائِعين ﴾ (٤) .

إنهما جرتا على المراد ووقفتا عند الحدود والأقدار من غير معاناة طويلة

---

(١) الأحزاب/ ٧٢

(٢) التسهيل ٣ / ١٤٥

(٣) تلخيص البيان / ٢٤٥

(٤) فصلت/ ١١

ولا مشقة شديدة ، فكانتا في ذلك جاريتين مجرى الطائع المميز إذا انقاد إلى ما أُمر به ووقف عنده وقال بعضهم معنى قوله سبحانه : ﴿ ائْتِيا طَوْعًا أو كَرْهًا ﴾ اي كونا على ما أريد منكما من لينٍ وشدةٍ وسهل وحزونة .. وقال بعضهم لما تضمن الكلام ذكر السموات والأرض في الخطاب لهما والكناية عنهما بما يخاطب به أهل التميُّز ، ويكنى به عن السامعين والناطقين ، أجريتا في رد الفعل إليهما مجرى العاقل اللبيب والسامع المجيب (١) وقد يكون ذلك قد تم حقيقة بحيث أنطق الله الأرض والسماء بقولهما ﴿ أتينا طائعين ﴾ وإنما جمع " طائعين " جمع العقلاء لوصفهما بأوصاف العقلاء قال القرطبي : { قال أكثر أهل العلم : بل خلق الله فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد تعالى } (٢) .

فالسماء والأرض ـ على صخامتهما ـ انقادتا مذعنتين ، فما بال الإنسان لا ينقاد بطاعة الأرض والسماء ؛ بل يحاول أن يتفلَّت .. ويماري .. ويجادل .. والحق واضح'' جليّ ، ما أحوجنا أن ننطبع بهذا الطبع اللين الذلول ، وما أبلغ هذا البيان القرآني في ضرب المثل للإنسان في سلاسة الإذعان ، وليونة الخضوع ، وعمق الاستجابة ، والمبالغة في الطاعة عن طريق هذا التصوير البديع الرامي إلى تصوير أثر قدرته في المقدورات سواء أكان الخطاب مقالاً أم حالاً .

وأخيرًا منه قوله تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ ﴾ (٣) .

إذ خفيت على المشركين الحجج ، وأظلمت عليهم الأمور ، فلم يعرفوا بمَ يُجيبون ، فهم حيارى واجمون ، وقد استعير العمى لعدم الاهتداء فهم لا يهتدون للأنباء ثم قلب للمبالغة فكأن الأنباء هي التي لا تهتدي إليهم وأصله " فعموا عن الأنباء " وضُمِّن معنى الخفاء فَعُدِّي بـ " على " فاشتمل السياق على الاستعارة والمبالغة والقلب والتضمين (٤) .

---

(١) انظر تلخيص البيان / ٢٧٠

(٢) القرطبي ٩ / ٦٠٠٨

(٣) تمام السياق : " ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين * فعميت عليهم الأنباء يومئذٍ فهم لا يتساءلون * القصص /٦٥ ، ٦٦ ، قال الراغب الأصفهاني : { عمي عليه أي : اشتبه حتى صار بالإضافة إليه كالأعمى قال " فعميت عليهم الأنباء يومئذٍ " ، " وآتاني رحمة من عنده فَعُمِّيَت عليكم " هود/ ٢٨ } المفردات / ٥٨٩

(٤) انظر البيضاوي ١٩٨/٢ ، أبا السعود ٢٢/٧ ، روح المعاني ١٠٢/٢٠، ١٠٣ .

ومن نماذجه التي عدَّها البلاغيون من " المجاز المرسل " قوله تعالى :

﴿ يَجْعَلون أَصَابِعَهم فِي آذانهم من الصَّواعِق حَـذَر المَوْتِ ﴾ (١) .

فهـؤلاء المـنافقون كـانوا يضعون رءوس أصابعهم في آذانهم لدفع خطر الصـواعق وذلـك من فرط الدهشة والفزع كأنهم يظنون أن ذلك ينجيهم ، واللافـت في السياق أنه أراد بالأصابع بعضها ؛ لأن الإصبع كلها لا تجعل فـي الأذن إنمـا تجعل فيها الأنملة ، لكن هذا من الاتساع على سبيل إطلاق الكل على الجزء ، ولأن هؤلاء لفرط ما يهولهم من إزعاج الصواعق ، كأنهم لا يكـتفون بالأنملـة ، بل لو أمكنهم السد بالإصبع كلها لفعلوا { وفي الآية مـبالغة في فرط دهشتهم وكمال حيرتهم .. من وجوه (أحدها) نسبة الجعل إلى كل الأصابع وهو منسوب إلى بعضها وهو الأنامل (وثانيها) من حيث الإبهام في الأصابع والمعهود إدخال السبابة فكأنهم من فرط دهشتهم يدخلون أي إصـبع كانـت ولا يسلكون المسلك المعهود (وثالثها) في ذكر الجعل موضـع الإدخال فإن جعل شيء في شيء أدلُّ على إحاطة الثاني بالأول من إدخاله فيه } (٢) .

ولـيس هـناك أدلَّ على المبالغة من مثل هذه الصورة البديعة ؛ لأن دخول الإصـبع كلهـا في الأذن أمر لايمكن تصوره عـادة ، لكن دلالته عميقـة بلـيغة ؛ فهـي تدلُّ بقوة على إحكام السد المُفصح عن الخوف الفاضح من الموت المترقب من تلك الصواعق المدمرة . وهذا هـو المعنى الزائـد أو " الثانـي " الـذي تُضيفه المبالغة ، إنها تُثري الصورة وتُكسب الدلالة دلالة أخـرى مُفـْعمـة بالقوة والشدة ، وأحيانـًا بالكثرة والتعدد .. وفي أحايين كثـيرة تكشف الصورة الفنية أبعادًا جديدة ــ فهنا مثلاً ــ تومي الصورة إلى كمال حيرتهم ، وفرط دهشتهم وبلوغهم إلى حيث لا يهتـدون إلى استعمـال

---

(١) الـبقرة / ١٩ ، وقريب'' منه قوله تعالى : " وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبـارًا " نوح/ ٧

(٢) روح المعاني ١ / ١٧٣

الجوارح على النهج المعتاد وكذا الحال في عدم تعيين الإصبع المعتاد (١)

كذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ (٢) .

فقد كان من المنافقين أناس'' يؤذون الرسول بأقوالهم وأفعالهم ﴿ ويقولون هو أذن ﴾ أي يُصدِّق كل ما يسمعه ؛ إنه سوء أدب منهم في حق النبي العدنان ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيسمون الأدب الرفيع له في الاستماع إلى الناس بإقبال وسماحة والإنصات إلى أحاديثهم بأدب ودماثة ، يسمونه بغير اسمه ، ويصفونه بغير حقيقته قصدًا لإلحاق الأذى برسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في أنه لا يفرق بين قول وقول ، وأنه يجوز عليه الكذب والخداع ، وحملوا هذا الصنيع منه على عدم التنبُّه ، والغفلة ؛ إذ كان يقبل كل ما يُقال له ؛ لأنه كان يعاملهم بظواهرهم ، وَيكلُ بواطنهم إلى الله ــ عز وجل . ومن هنا فقد قابلوا أدب النبي ــ صلي الله عليه وسلم ــ الرَفيع في عدم مجابهتهم بسوء ، وتحمل أذاهم ، والصفح عنهم ــ قابلوه بهذا الظن السيئ ، وذاك الإيذاء الشنيع واللافت في السياق { في تسميته أذنًا مجاز مرسل من إطلاق الجزء على الكل للمبالغة في استماعه حتى صار كأنه هو آلة السماع كما يُسمَّى الجاسوس عينًا (٣) .

ومن الإعجاز في السياق ــ أيضًا ــ اللَّفت إلى استخدام الفعل المضارع ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ... والذين يؤذون رسول الله ﴾ فلم يأت النظم " آذوا " لما فيه من إشارة إلى ما سوف يتعرض له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ

---

(١) انظر أبا السعود ١ / ٥٣

(٢) تمام الآية : " ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة '' للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب'' أليم " التوبة/ ٦١ ، قال ابن منظور : {رُجل'' أذن ، ورجال'' أذن ، فأذن للواحد والجميع في ذلك سواء ، إذا كان يسمع مقال كلِّ أحد .. وإنما سموه باسم العضو تهويلاً وتشنيعًا .. وفي التنزيل العزيز : " ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم " ومعناه وتفسيره أن في المنافقين من كان يُعيبُ النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويقول : إن بلغه عني شيء حلفت له وقبل مني لأنه أذن ، فأعلمه الله تعالى أنه أذن خير ، لا أذن شر . وقوله تعالى : "أذن خير لكم " أي مستمع خير لكم . ثم بيَّن ممن يقبل فقال تعالى : " يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين " أي يسمع ما أنزل الله عليه فيصدِّق المؤمنين فيما يُخبرونه به } اللسان مادة { أ . ذ . ن } .

(٣) الصاوي على الجلالين ٢ / ١٣٢ ، ١٣٣

من أذى على المدى المستقبلي البعيد (١).

ومن نماذجه التي عدَّها البلاغيون من " المجاز العقلي " قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ (٢).

يعنـــي سبع سنين ذات شدة وجوع ، تأكلون فيهن ما ادخرتم من الطعام في ســنبله ، وأُســند الأكــل إلى السنين مجازًا قال الشريف الرضـــي : { هذه اســتعارة (٣) والمــراد بالسبع الشداد السنون المجدبة ومعنى يأكلن ما قدمتم لهــن أي ينفد فيهن ما ادخرتموه لهن من السنين المخصبة وجرى ذلك على عــادة العــرب في قولهم أكلت آل فلان السنة يريدون مسهم الضر في حال الجــدب " حتى أنهم يسمون السنة المجدبة الضبع فيقولون أكلتهم الضبع أي نهكتهم سنة الحرب } (٤).

والصورة عجيبة في تصوُّر السنين وهي تأكل بذاتها من الحبوب المتروكة

---

(١) ومنها تلك الرسومات الفجَّة التي رُسمت في الصحيفة الدانمركية تحمل إساءة لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو تصديق'' ــ أيضًا ــ لقوله تعالى : " ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومــن الذين أشركوا أذى كثيرًا " آل عمران / ١٨٦ ، " إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخــرة وأعــد لهم عذابــًا مهينــًا * والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسوا فقد احتملوا بهتانــًا وإثمــًا مبينــًا " الأحزاب /٥٧ ، ٥٨

(٢) يوسف/ ٤٨

(٣) الموضع مجاز عقلي عند المحققين من البيانيين والمفسرين لكن الشريف الرضي سمَّاها استعارة على طريقــته في إطلاق الاستعارة على كل ما يُسمَّى مجازًا ؛ بل ربما يطلقها على ما ليس مجازًا أصلاً . وجديــر'' بالذكر أن بعض العلماء المعاصرين ومنهم د . عبد الواحد علام ــ رحمه الله ــ يقلــل من شأن المجاز العقلي ويرى أنه مقحم على الدرس البلاغي ؛ فهو يقول : { يتضح مما تقدم عرضـــــه فــي مبحــث " المجــاز العقلي " مفهومه ، تكوينه ، علاقاته ... مدى صلة هذا اللون من ألوان التعبير بالــبلاغة ، وهــي صلة ضعيفة واهية ، ولا أدل على ذلك مما تراه في أقوال البلاغيين أنفسهم في هذا الصــدد " ويقول في موطن آخر { إنه ينبغي إعادة النظر في مثل هذا النوع . ومن الواضح بعد كل ما قدمــنا أنــه نوع مقحم'' على الدرس البلاغي إقحامــًا ، ناهيك عن أن يكون كنزًا من كنوز البلاغة ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان والاتساع في طريق البيان كما ذهب إلى ذلك عبد القاهر } انظر قضايا ومواقف في الذات البلاغي للدكتور عبد الواحد علام / ٩٧ ، ١٠٧

ولست أرى ما مال إليه وأميل إلى رأي عبد القاهر في عده لونــًا بيانيــًا ذا خطر في البلاغة العربية ، وليس مُبــرِّرًا للرفض ورود نماذج بعيدة في التراث أو تقسيمــات عقيمة ، وهذه النماذج التي قدمتها في التحليل دليل على أهميته في الدرس البلاغي .

(٤) تلخيص البيان / ١١٦ .

فـــي ســـنابلها ، وسرُّ الصورة في المبالغة في تحـــوُّل الزمن نفسه من شدة الجوع والجدب إلى اشخاص ٍ آكلة ، فلم يَعـــُد الناس وحدهم المحتاجون إلى الطعام ، والتزود منه ؛ بل أضحى الزمن نفسه فاغرًا فاه يشتهي الأكل ، كما يشتهيه بنو البشر وقريب منه قوله تعالى :

﴿ والنَّهار مُبْصرًا ﴾ (١) أي كأن النهار نفسه هو المُبصر .

ومنه قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيلِ والنَّهارِ ﴾ (٢)

إذ قال المستضعفون للمستكبرين : ما كان إجرامنا من جهتنا ؛ بل مكركم لنا دائمـــًا ، ومخادعـــتكم لنا ، ليلاً ونهارًا ، إذ تأمروننا ونحن أتباع لا نقدر علـــى مخالفـــتكم ، مطيعون لكم ــ لاستيلائكم علينا ــ هو الذي صدنا عن الإيمان ، وحال دون اتباعنا للهدى .

وجمال السياق في إضافة المكر إلى الليل والنهار على وجه الاتساع كقولهم نهـــاره صيام وليله قيام أي يصام فيه ويقام . فكأن الظرفين الزمنيين : الليل والـــنهار قـــد أضحا ماكرين يقومان هما بالمكر والاحتيال وصدِّ الناس عن الإيمـــان ، والحاصـــل أن المكر حادث فيهما ، ومن هنا جاءت المبالغة في تحـــوُّل الزمن نفسه ماكرًا محتالاً ، فهذا التكثيف الدلالي مشير '' إلى كثرة المكـــر ، ودوامه بالليل والنهار والمبالغة في استخدام جميع الوسائل الصادة عن الإيمان والهدى من قِبَل أولئك المستكبرين .

ومنه قوله تعالى :

﴿ نَاصِيةٍ كَاذِبةٍ خَاطِئة ﴾ (٣)

وصـــف الناصية بالكذب والخطأ على الإسناد المجازي وهما لصاحبها أبي جهل ، وفيه من الجزالة ما ليس في قولك ناصية كاذب خاطئ قال الألوسي : { ووصف الناصيـــــة بما ذكر مع أنه صفـــــة صاحبها **للمبالغـــــة** حيث

---

(١) من قوله تعالى : " هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرًا .. " يونس/ ٦٧ .

(٢) سبأ/ ٣٣ ، قال ابن منظور : { المكر : احتيال في خُفية } اللسان مادة { م . ك . ر } .

(٣) العلق/ ١٦

يـــدل علـــى وصـــفه بالكذب والخطأ بطريق الأولى ، ويُفيد أنه لشدة كذبه ، وخطئه كأن كل جزء من أجزائه يكذب ويخطئ وهو كقوله تعالى :

﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ ﴾ النحل ٦٢ (١)

لكـــن ما السر في اختصاص الناصية بوصف الكذب والخطأ ولم يكن القلب مثلاً أو غيره من الأعضاء قال د . زغلول النجار (٢) { في وصف ناصية كافر مثل أبي جهل بأنها { كاذبة خاطئة } تشير الآية السادســـة عشـــرة من " سورة العلق " إلى حقيقة علمية لم تبدأ في الانكشاف للإنسان إلا من بدايات النصـــف الثاني للقرن التاسع عشر ، ولم يتم تبلورها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين ، وهذه الحقيقة تتلخص في أن ناصية الإنسان هي مركز التحكم في اتخاذه للقرار وفي تصرفاته وحكمه على الأشياء } (٣) .

---

(١) روح المعاني ٣ / ١٨٧

(٢) نقلاً من جريدة الأهرام المصرية بتاريخ ١٨ابريل ٢٠٠٥م تحت عنوان : من أسرار القرآن .

(٣) ثـم يضيف قائلاً : { وقد كانت " سورة العلق " من أوائل ما نزل من القرآن الكريم ، وذلك من قبل ألـف وأربعمائـة سـنة في زمن لم يكن لأحد من الخلق إدراك لدور الناصية في حياة الإنسان ، ذلك الـدور المهـم الـذي لم يلاحظ إلا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي حين تعرّض أحد العمال الأمريكيين (فـي صيف سنة ١٨٤٨م) لحادث أصاب ناصيته ، هذا الشاب الأمريكي كان يحمل اسم فينـياس .. وكان يعمل في شق طريق لخط من خطوط السكك الحديدية في الجزء الشمالي الشرقي من الولايـات المتحدة الأمريكية وفي أثناء تفجير إحدى الوحدات الصخرية تطاير قضيب حديدي يزن نحو ١٣ رطـلاً ليضربه في جبينه فازال جزءًا من جمجمته وجزءًا من مقدمة مخه تحت الجبهة تمامـًا ، ولقـد نجـا هذا الشاب من الموت ولكنه أصيب بتغير تام في شخصيته ، وتحوّل إلى إنسان آخر غير الـذي كـان قـبل الحادث الذي تعرض له ، وإن بقي قادرًا على الكلام ، والسمع ، والبصر ، والشم ، والـتذوق ، واللمـس والتحكم في حركة أعضاء بدنه بطريقة طبيعية ، وكان من أوضح ملامح التغيير التـي طـرأت عليه : العدوانية الشديدة ، الكذب ، عدم الشعور بالمسئولية ، عدم القدرة على التعبير ، سرعة الغضب ، فقـد القدرة على الإرادة والتحكم في النفس ، وعلى التخطيط ، وعلى الثبات العاطفي ، وعلـى تغيـير السـلوك ، وعلى اتخاذ القرار المناسب ، وعلى التفاعل السليم مع الآخرين ، وعلى مواجهة المشاكل التي كانت تقابله ، وهو ابن الخامسـة والعشرين . وهذه الحادثة — على مأساويتها — كانـت فـتحـًا لأطباء المخ والأعصاب ، فقد تعلموا منها أن لكل جزء من المخ وظائفه الخاصة به ، ومـن أجل تحقيق ذلك بدأوا باستثارة أجزاء من المخ كهربيـًا في سلاسل من التجارب المكررة ، كما بـدأوا بتدمير أجزاء مختلفة من المخ في حيوانات التجارب ، وذلك في سلاسل من التجارب المعادة من اجـل التوصـل إلى معرفة وظائف الأجزاء المختلفة من المخ .. وبعد مجاهدات استغرقت آلافـًا من العلمـاء ومـئات مـن السنين ، ومن التجارب المعملية ... توصل علماء المخ والأعصاب إلى أن مخ الإنسـان الذي لا يشكل اكثر من ٢% من وزنه (أي نحو ١ إلى ١,٥ كيلو جرام في المتوسط) يتحكم فـي جمـيع أنشـطته الذهنـية والبدنية ويتكون مخ الإنسان من كتل بالغة التعقيد من الخلايا والأنسجة العصبية الممتدة من الحبل النخاعي الشوكي والمحتواه في داخل الجمجمة } .

والملحظ في السياق أن هذا الشقي أبا جهل لشدة كذبه وافتراه المُتمادي أضحى كأن جميع بدنه ينطق بذلك فها هي ناصيته نفسها كاذبة خاطئة ، والنكتة البلاغية في الوصفين : أن الوصف الأول " كاذبة " اسم فاعل ، وهو قريب في الدلالة من دلالة المضارع ، وذلك لتجدد كذبه وشيوعه ــ كما أثبت العلم الحديث ــ فيما أشرت إليه من أن مناط الكذب والصدق ، بل والتحكم في جسم الإنسان كله إنما هو المخ لا سيما مما يلي الجبهة ، اما وصف " خاطئة " بهذه الصيغة تعني أنه معاقب'' مأخوذ ؛ لأن الخاطئ هو الذي يفعل الذنب متعمدًا أما المُخطئ فهو الذي يفعله بغير قصد . والوصفان ــ معًا ــ يُلمحان إلى مدى جبروت هذا الشقي ، وبلوغه الغاية في التكذيب والخطأ .

ومنه قوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ (١)

هؤلاء هم المحسنون المتصدقون يفعلون ذلك رجاء أن يقيهم الله هول ذلك اليوم العصيب ، الذي تعبس فيه الوجوه ، ووصف اليوم بالعبوس مجاز من وجهين : أحدهما أن يوصف اليوم بصفة أهله على سبيل المجاز العقلي ، فالعابسون في الحقيقة هم الناس ، ووصف اليوم به مبالغة في الشدة والآخر على سبيل التشبيه بالأسد العبوس (٢) ويبلغ العبوس مبلغه في الشدة فيما رواه ابن عبَّاس أن الكافر يعبس يومئذٍ حتى يسيل منه عَرَق'' كالقطران (٣).

وقريب'' منه قوله تعالى :

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ (٤)

---

(١) تمام السياق : " إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا * إنا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قمطريرًا " الإنسان/ ٩ ، ١٠

(٢) انظر الكشاف ٤ / ١٦٨ ، ١٦٩ ، التسهيل ٤ / ١٦٨ ، أبا السعود ٩ / ٧٢ ، القرطبي ١٠ / ٧١٧٠ ، ٧١٧٢ ، البيضاوي ٢ / ٥٥٢

(٣) انظر القرطبي ١٠ / ٧١٧٠

(٤) المزمل / ١٧

إنه يوم'' رهيب'' ذاك الذي يشيبُ فيه الوليدُ من شدة هوله وفظاعة أمره وذلك حين يقول الله لآدم : أخرج من ذريتك بعث النار ، من كلٍّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، فيشيب هنالك كل وليد . وَبيِّن'' أن الصورة مجاز عقلي علاقته ــ أيضًا ــ الزمانية حيث أسند الفعل أو ما في معناه إلى الزمن الذي يحدث فيه .

ولا ريب أن يوم القيامة يحول أهوالاً شدادًا يصيرُ فيه الصبيان شيوخًا ، يُكنى بذلك عن شدته ، إذ يقال في اليوم الشديد : يوم يشيب نواصي الأطفال والأصل فيه ــ كما أشار أبو حيان ــ أن الهموم إذا تفاقمت أسرعت بالشيب .

قال المتنبي :

والهمُّ يَخْتَرِمُ الجَسِيمَ نَحَافَةً وَيُشيب ناصيةَ الصَّبيِّ وَيُهرِمُ (١)

إنها صورة'' ينقلها السياق القرآني إلى حِسِّ المُخَاطبين ، كأنها واقعة ماثلة في النفس أعظم تمثيل ؛ لأنها تقع في قلوب المؤمنين موقعًا يقينيًا نافذًا ، وكيف لا ؟ ! .. والمشاهد عن يوم القيامة تترا ، ففي أول سورة الحج مشاهد متقاربة لهذا المشهد ، مِلْؤها الخوف والفزع وإبداء أهوال هذا اليوم الشديد في قوله تعالى : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مُرضعة عمّا أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ (٢) اللهم نجنا من عذابك يوم تبعث عبادك .

---

(١) انظر البحر المحيط ٨ / ٣٥٧

(٢) الحج/ ١ ، ٢

٤- الكنايـــــــــة

يــبدو مـــن التعاريف المختلفة للكناية عند البلاغيين [١] أنها تتَّسم بنوع من الازدواجــية أو الثنائــية في التعبير ، هذه الثنائية لا تؤدي إلى التَّناقض أو التصـــادم بين الصياغة وناتجها ، لأن اللفظ أنتج الحقيقة والمجاز معًا ، ذلك أن الازدواج الإنتاجــي ليس راجعًا إلى الإفادة ، فالاستعمال مرتبط بالحقيقة الوضعية أما الإفادة فهي التي ترتبط باللزوم الطارئ في قولنا : " فلان طويل الثوب " يكون طول الثوب مستلزمًا لطول القامة ، وقد استعمل اللفظ في لازم معــناه دون أن يعــوق ذلك إرادة طول الثوب على الحقيقة ، وهو ما يعني حضــور المعنى الأول والثاني إلى رحاب الصياغة وعلى المتلقي أن يُسهم بــدور فعَّـــال في تحديد المعنى المراد : الحقيقة أم المجاز ، ولذا فإن البنية الثنائــية تعمل على شحذ ملكات المتلقي ، وتُحفِّزه كيما يَستنبطِنُ المعنــى ، وتثقل دوره في كشف الإطار الدلالي الواسع للكلام . وتعني الكناية من ناحية أخرى (المعنى الفرعي المنبثق عن المعنى الأصلي)[٢].

فالمعنى الفرعي لازم للمعنى الأصلي ، ولكنه ليس لزومـــًا حتميـــًا ، بل هو لزوم مرن ، متطور ، متقلب الدلالة والأثر .

إننا بحاجة ــ في إطار التجوز والتوسُّع ــ إلى الخروج عن الإطار المعجمي الــذي يُقدِّم للمتلقي دلالة قريبة ، وتناولاً سهلاً وتفاعلاً ميسورًا ، فإن بهاء الأســلوب هــو الذي { ينجلي لك بعد أن يُحوجك إلى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطــر له ، والهمة في طلبه ، وما كان منه ألطف كان امتناعـــــه عليك أكـــثر وإباؤه أظهر ، واحتجاجـــه أشد ، ومن المركوز في الطبــع أن

(١) أحدهمـــا كمـــا عرَّفها عبد القاهر الجرجاني : { أن يريد المتكلم إثبات معنى من معاني ، فلا يذكره باللفظ الموضـــوع له فـــي اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه } دلائل الإعجـــاز / ٦٦ ، وقد رجعت في درس " الكناية " ــ بالإضافة إلى كتب التراث ــ إلى كتاب " الصورة الفنــية فـــي شعر المتنبي " د . منير سلطان ــ منشأة المعارف ط الثالثة ٢٠٠٢م (الكناية والتعريض) و " التعبـــير البيانـــي " للدكـــتور شفيع السيد دار الفكر العربي / ١٢٩ وما بعدها ، و " التصوير البياني " للدكتور محمد أبو موسى ط ٣ مكتبة وهبة / ٣٦٣ – ٤٤٣ و " الصورة الأدبية في القرآن الكريم " للدكتور صـــلاح الديـــن عـــبد التواب ط الشركة المصرية العالمية للنشر ــ لونجمان ١٩٩٥م / ٦٧ – ٧٣ و " الــبلاغة العربية " للدكتور محمد عبد المطلب ــ الشركة المصرية العالمية للنشر ــ لونجمان ط ١٩٩٧م / ١٨٦ ومـــا بعدها و " علوم العربية " لأحمد مصطفى المراغي ط دار الآفاق العربية ٢٠٠٠م / ٣٦١ وما بعدها ، رسالة حذف الكلمة في القرآن الكريم – دراسة بلاغية / ٣٠٦ .

(٢)الصـــورة الفنـــية في شعر المتنبي (الكناية والتعريض) للدكتور منير سلطان ــ الناشر : منشأة المعارف بالاسكندرية ٢٠٠٢م ص ١٠٣ .

الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ، ومعاناة الحنين نحوه ، كانت به أضن وأشغف } (١).

ومهما يكن من أمر فقد دأب البلاغيون ــ لاسيما المتأخرين منهم (٢) على تناول فنونها مُقسمةً أقسامًا ثلاثة هي : الكناية عن صفة ، وعن موصوف ، وعن نسبة ، ولعل هذه القسمة تصرف جهدًا من المتلقي ، وتُبدِّد وقتًا ضائعًا منه في صرف الوجه الكنائي لكي يندرج في واحدةٍ من تلك التقسيمات وربما كان من الأوفق أن يوجِّه المتلقي كل اهتمامه بدلالة التعبير الكنائي المُفضية إلى كشف مناحيه التذوقية لما تحويه البنية الكنائية من لفتات ذهنية قائمة على التلازم بين مستوييها السطحي والعميق الأمر الذي يتطلب منه بذل كل طاقاته ، لإحداث غاية التواصل والتفاعل المنشودين { لا سيما أن هذه الكلمات ليست مصطلحات خاصة بالكناية ؛ بل هي كلمات عامة } (٣).

ويتماز الأسلوب الكنائي عن غيره أنه في بعض الأحايين يمثل الوسيلة الوحيدة الملائمة للتعبير عن المعنى إذ يمثل { الطريقة المُثلى لصياغة الحَدَث أو الموقف ساعة أن يكون التعبيرُ الصريحُ منافيًا للذوق ، مجافيًا لقواعد الأخلاق والآداب } (٤).

من ذلك كنايات القرآن اللطيفة المُعبِّرة عن جمال المبالغة في أدب الخطاب ، وسمو الأسلوب ، وانتقاء اللفظ المُوحِي مثل " الجماع " فقد كَنَى القرآن عنه بـ " الرَّفث " كما في قوله تعالى :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ (٥)

وكَنَى عنه بـ " بالمباشرة " كما في قوله تعالى :

﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ (٦)

---

(١) أسرار البلاغة /١٣٩ .

(٢) انظر علوم البلاغة / ٣٦٣ – ٣٦٥

(٣) التعبير البياني / ١٣٣

(٤) انظر التعبير البياني / ١٣٣

(٥) البقرة / ١٨٧

(٦) البقرة /١٨٧

وكَنَى عنه بـــ " بالغشيان " كما في قوله تَعالى :

﴿ فَلَمَّا تَغشَّاها حملتْ حَمْلاً خَفِيفــًا ﴾ (١)

وكَنَى عنه بـــ " بالسر " كما في قوله تعالى :

﴿ ولَكِن لا تَواعِدُوهنَّ سِرًا ﴾ (٢)

وكَنَى عنه بـــ " بالملامسة " كما في قوله تَعالى :

﴿ أَوْ لامَسْتمُ النِّساء ﴾ (٣)

وهـــو فـــي كـــل هـــذا يمنح البشرية تَعلـُّم عالمية الخطاب ، وأسباب تقدُّم الحضارة الإنسانية التي ينبغي أن تشعَّ في البشرية جمعاء ، وهو بذلك يُرسي أسس الفكر البشري الرفيع الذي ينشد الوعي الصائب ، ويبثُّ الروح السامية فـــي الوجـــود ليعمر الكون ، وتَسعد البشرية ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقـــًا لما بين يديه من الكتاب ومُهيمنـــًا عليه ﴾ (٤)

أضـــف إلـــى هـــذا أن التصـــوير الكنائي نفسه يعكس جمـــالاً لا يُنكر ، ورحابـــةً فـــي الخيال لا تَختفي منوطة بالثنائية البديعة التي يفجرها التعبير بالكناية ومن نماذجه قوله تعالى :

﴿ وإذَا خَلـــَوا عَضُّوا عَلَيكُم الأنامِلَ مِن الغَيْظِ ﴾ (٥)

فقـــد كـــان المنافقون إذا خلوا في مجالسهم عضوا أطراف أصابعهم من شدة الغيـــظ والغضب من ائتلاف المسلمين وتَوحدهم ، والظـــاهر كما أشـــار

---

(١) الأعراف/ ١٨٩

(٢) البقرة /٢٣٥

(٣) النساء / ٤٣

(٤) المائدة / ٤٨

(٥) آل عمران / ١١٩ ، قال الراغب : { العضُّ : أزمٌ بالأسنان قال تعالى : " عضوا عليكم الأنامـــل " .. و " يـــوم يعـــض الظالم " الفرقان/ ٢٧ ، وذلك عبارة عن الندم لما جرى به عادة الناس أن يفعلوه عند ذلك } المفردات / ٥٧٠ وقال ابن منظور : { العضُّ : الشَّـــدُّ بالأسنان على الشيء ، وكذلك عضُّ الحية ، ولا يُقال للعقرب ، لأن لدغهـــا إنمـــا هو بزباناهـــا وشَولتها } اللسان مـــــــــادة (ع . ض . ض) .

أبو حيان أنه يقع منهم حقيقة عضٌ الأنامل لشدة الغيظ مع عدم القدرة على ما يريدون ، ويوصف المغتاظ والنادم بعضٌ الأنامل والبنان والإبهام والعضٌ يكون بالأسنان ، وهي هيئة في بدن الإنسان تتبع هيئة النفس الغاضبة ، كما أن ضرب اليد على اليد يتبع هيئة النفس المتلهفة على فائتٍ قريب الفوت ، كذلك عدٌ الحصى ، والخط في الأرض للمهموم ونحوه ، ويحتمل أن لا يكون ثمَّ عضٌ ، ويكون ذلك من مجاز التمثيل ، عُبِّر بذلك عن شدة الغيظ والتأسف على مايفوتهم من إذاية المسلمين ، ونبَّه تعالى بهذه الآية على أن من كان بهذه الأوصاف من بغض المؤمنين والكفر بالقرآن ، والرياء بإظهار ما لا ينطوي عليه باطنه جدير'' بأن لا يُتخذ صديقًا (١) .

إنها نماذج بشرية حرَّكتها الانفعالات الداخلية المتبلورة في ذوات نفوسهم حنقًا على المسلمين ، فبدت تطفو على السطح هذه الحركة اللا إرادية المعبرة عن طبيعة بواطنهم الناقمة ، وقد بدت البغضاء من أفواههم ، وارتسمت علائم التحسُّر على إشاراتهم ، إن هذه الحركة المُشَاهدة ما كانت لتتبع إلا بعد أن بلغ الغيظ مبلغه .

والصورة تُمثل محور التعليل الذي من أجله مُنع على الأمة المسلمة أن تتخذ مثل هؤلاء بطانة وأصحابًا وأخِلاَّء ؛ لأن قومًا هذا دأبهم يُخشى باتخاذهم أصدقاء مغبة الإفضاء إليهم بالأسرار ، عندها تكون الأمة قد أعطتهم مفتاح كبوتها ، ومكنتهم من رقاب المسلمين وكشف عوراتهم فلا تقوم لها بعد ذلك قائمة أبدًا .

وقريب'' منه قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ (٢)

---

(١) انظر البحر المحيط ٣ / ٤٤

(٢) الفرقان/ ٢٧ ، الظالم ــ هنا ــ عقبة بن أبي مُعَيْط وقيل كل ظالم ، لأن العبرة بعموم اللفظ ، والظلم ــ هنا ــ الكفر . انظر التسهيل ٣ / ٧٧ ، قال ابن عاشور : { العضُّ على اليد كناية عن الندامة ؛ لأنهم تعارفوا في بعض أغراض الكلام أن يصحبوها بحركات بالجسد مثل التشدُّر وهو رفع اليد عند كلام الغضب .. ومثل وضع اليد على الفم عند التعجب .. ومنه في الندم قرع السن بالأصبع ، وعضُّ السبابة وعض اليد ويُقال : حَرَّقَ أسنانه وحَرَقَ الأرَّم (بوزن رُكَّع) الأضراس أو أطراف الأصابع ، وفي الغيظ عض الأنامل ... كانت كنايات بناء على ما يلازمها في العرف من معانٍ نفسية ، واصل نشأتها عن تهيج القوة العصبية من جوَّاء غضب أو تلهُّف } التحرير والتنوير مجلد ٩ ١٩ / ١٢

حيث تبدو الثنائية ــ هنا ــ رائعة في التصوير ، سواء أجريته على الحقيقة أم على المجاز ، فالمقصود ذكر هول القيامة بتندم الظالم وتمنيه أنه لم يكن أطاع خليله الذي كان يأمره بالظلم ، وما من ظالمٍ إلا وله في الغالب خليل خاص به يُعبّر عنه بفلان ، والظاهر : أن الظالم يعضُّ على يديه فعل النادم المتفجع ، وقال الضحَّاك : يأكل يديه إلى المرفق ثم تنبت ولايزال كذلك كلما أكلها نبتت ، وقيل هو مجاز عبّر به عن التحير والغم والندم والتفجع ، ونقل أئمة اللغة أن المتأسف المتحزن المتندم يعضُّ على إبهامه ندمًا (١) .

وبَيِّن'' أن حركة " عضُّ اليد " نشأت عن تهيُّج القوة العصبية ، وتولّدت عن فرط الغيظ والحسرة والأسف ، وإن أداء البُعد الحركي على هذا النحو المُجَسَّم لدلالات الأسى النفسية الغائرة في ضميره ، يلقي بظلاله على المتلقي ، ليُسهم في تواصله مع هذه الحركات المُشَاهَدة ، فيؤدي إلى حفز خلاّق مستمر لمخيلته ، وإناطةٍ وثيقة بين المعنى السطحي القريب ، والمعنى المجازي العميق لذا قال الزمخشري مفصحًا عن جمال الكناية في قدرة المتلقي فس استكشاف المعنى الغائر { عضُّ اليدين والأنامل " كنايات عن الغيظ ، والحسرة ، لأنها من روادفها ، فيذكر الرادفة ، ويدل بها على المردوف ، فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة ، ويجد السَّامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المكني عنه } (٢) .

واللافت في السياق أنه لم يأت " يعض على يده " ، بل جاء " على يديه " ــ الاثنين معًا ــ وكأنه لا يكفيه العضُّ على يدٍ واحدةٍ حتى يجمع إليها الأخرى ، وإن أنت عرضت هذه الصورة على وجهيها : الحقيقي ، والمجازي ألفيت المبالغة تطل عليك منهما ، فجمع " يديه " كليهما في السياق ، فيه دلالة ناطقة على مدى الحالة النفسية البالغة التي وصل إليها والتي جسمتها هذه الحركة المصورة بهذا الإيقاع الشديد .

---

(١) انظر البحر المحيط ٦ / ٤٥٤

(٢) الكشاف ٣ / ٩٥

ومنه قوله تعالى :

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ (١)

الدابـــر هـــو التابع من خلف ، يُقال دبر الولد والده ، ودبر فلان القوم تبعهم فمعـــنى دابـــرهم : آخـــرهم ، وهو كناية عن الاستئصال ، فقد استؤصلت شـــأفتهم ، ومدار المبالغة ـــ هنا ـــ هو القوة في الأخذ والإهلاك ، إذ لم يبق منهم أحد ؛ لأن المستأصل يبدأ بما يليه ، ويذهب يستأصل إلى أن يبلغ آخره وهو دابره (٢) .

والملحـــظ في السياق هو اقتران الإهلاك بالسبب الذي أفضى إليه وهو الظلم ويعني هنا الكفر (٣) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٤)

ثـــنى العطـــف عـــبارة عن الكِبْر والخيلاء كتصعير الخد وليّ الجيد ، وقيل الإعراض عن الذكر والرشد ؛ لأن المستثقل لسماع الشيء الذي لا يلائمه في الأكـــثر يصرف دونه بصره ، ويثني عنه عنقه ، والعطف جانب القميص ، وبـــه سُـــمِّي شـــق الإنســـان عِـــطفًا لأن منه يكون ابتداء انعطافه وأول انحرافه ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ (٥)

---

(١) تمـــام الســـياق : { فلمـــَّـــا نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ً فإذا هم مُبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين } الأنعام/ ٤٤ ، ٤٥ ، قال الراغب الأصفهاني : { وقطع دابر الإنسان : هو إفناء نوعه } المفردات /٦٧٨ ، وقال ابـــن مـــنظـــور : { وفـــي التنزيل : " فـــقطع دابرُ القوم الذين ظلموا " أي استؤصل آخرهم } اللسان مـــــادة (د . ب . ر)

(٢) انظر الصاوي على الجلالين ٢ / ١٤ ، التحرير والتنوير مجلد ٤ ٧ / ٢٣١

(٣) انظر البحر المحيط ٤ / ١٣٤

(٤) تمـــام الســـياق : { ومـــن الناس من يجادل في الله بغير علمٍ ولا هدى ولا كتاب منير * ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق } الحج/ ٨ ، ٩ ، قال الراغب : { قولـــه عـــز وجل (ثاني عطفه) ... وذلك عبارة عن التنكر والإعراض ، نحو : لوى شدقه ، و " نأى بجانبه " الإســـراء /٨٣ } المفردات ١٧٨

(٥) الإسراء/ ٨٣ ، انظر الكشاف ٣ / ٢٧ ، تلخيص البيان / ١٩٢ .

واللافـت في السياق ـ أيضًا ـ بروز البُعد الحركي المُعبِّر عن بُعدٍ نفسي عائـر ، فحركة ثني العنق ، وتصعير الخد ، وليّ الجيد كلها إشارات حركة تـنطوي علـى دلالات تحمـل شـحنات نفسية واضحـة ، مُشبعة بالكِبر والغطرسـة ، فالتعبير يكشف عن " الطبيعة النفسية " لهذا النموذج المتكبر ، فهـو لمـّـا لم يجد حجة ولا برهانـًا مال إلى العجرفة والغطرسة عوضًا عنهما .

وسِـرُّ جمال الصورة يتبدَّى في بروز ثنائية " الكناية " في شقيها : الحقيقي المُشَاهَد للعِيان المُعبِّر عن إيقاع حركة المتكبر ، وشقها المجازي الكائن في هذه النفسيات المذبذبة المعقدة التي تعتور هؤلاء المتكبرين والمُتعالين ، ويبدو الـتوازي فـيهما واضـحـًا في علو حركة الرأس والميل النافر اللافت في الصورة ، والكِبر الجاثم في أغوار نفوسهم ، وأعماق قلوبهم .

ومـن لطـيف الكنايات الكناية بـ " حمَّالة الحطب " عن " النمَّامة " كما في قوله تعالى :

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدٖ ﴾ (١)

كانت " أم جميل " تمشي بالنميمة بين الناس { ويُقال لمن يمشي بالنمائم ويُفسد بيـن الـناس بحمـل الحطب بينهم اي يوقد بينهم النار } (٢) وهي صورة موحية مجسِّدة للمعنوي في صورة المحسوس { وليس بالخفي ما للكناية من فضـيلة فـي إلباس المعقول ثوب المحسوس ، أترك تشاهد لطف التعبير ، ودقة التصوير ، إذا تأملت الكناية بحمالة الحطب عن " النمامة " التي تُفسد ذات البيـن وتُهـيج الشـر ... فإنك وأنت تقرؤها يُخيَّلُ إليك أنها ممسكة'' حطـبها بـيديها ومشـعلة'' نارًا لتوقد العداوة والبغضاء بين قوم ، وتؤلب بعضهم على بعض } (٣).

---

(١) المسـد / ٤ ، اسمها أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان وكانت عوراء ، وكانت تحمل حزمةً من الشـوك والحسك والسعدان فتنثرها بالليل في طريق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذمت بذلك . انظر البحر المحيط ٨ / ٥٢٧ ، الكشاف ٤ / ٢٤١

(٢) أبو السعود ٩ / ٢١١

(٣) علوم البلاغة / ٣٧٠

واللافت في السياق المبالغة في التحقير والتهوين من شـــــــأن هذه " الـنمَّامة " كما قال الكشاف : { إنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها فـي جـيدها كمـا يفعل الحطَّابون تَخسيسًا لها وتصويرًا لها بصورة بعض الحطَّابـات من المواهن لتمتعك من ذلك و يمتعض بعلها وهما في بيت العز والشـرف وفي منصب الثروة والجدة } (١) بينما ألمح " أبو حيان " إلى أن المهانـة لاصقة بها في جهنم ــ أيضًا ــ إذ { حالها يكون في نار جهنم على الصـورة التـي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك فلا يزال على ظهـرها حـزمة مـن حطب النار من شجر الزقوم أو الضريع وفي جيدها حبل'' ممَّا مَسَدَ من سلاسل النار كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه } (٢).

أضـف إلـى ذلـك من أدوات المبالغة : الصيغة " حمَّالة " من صيغ المـبالغة الدالة على الكثرة ، وسياق الحذف القائم على أسلوب الذم ؛ وذلك بنصـب " حمَّالةَ " والتقدير : " أذمُّ حمَّالةَ " (٣) ولفظ " المسد " الدال على شدة الفَتْل (٤).

وجملـة القـول أنها تُجزَى من جنس عملها ، فإيذائها بالحمل للحطب ينقلب عليها سواء أكان حَمْلاً حقيقيًا ظاهرًا ممثلاً في " حمل الشوك " أم حمـلاً مجازيًا ممثلاً في " المشي بالنميمة " ، والثنائية ــ هنا ــ منطبقة'' علـيها منطـبعة ، فدلالة الكناية بوجهيها تسير في خطـين متوازيين ؛ فقد كانـت حـياتها سلسـلة من الإيذاء البدني الظاهري بإلقاء الشـــــوك ، والإيذاء النفسي الباطنـــي بالمشي بالنميمـــة ، وبذر بذور الشقـــاق بين الناس ، كذلك الحطب يعني الشوك ويعني النميمة والحبل من مسد يعني

---

(١) الكشاف ٤ / ٢٤١

(٢) البحر المحيط ٨ / ٥٢٨

(٣) قـرأ " عاصـم " بنصب " حمالةَ " والباقون برفعها ، قال الزمخشري : { وقرئ " حمالةَ الحطب " بالنصـب على الشتم وأنا أستحب هذه القراءة } الكشاف ٤ / ٢٤١ وانظر أوجه الإعراب بـ " حمالة " الـبحر المحـيط ٨ / ٥٢٧ ، القرطبي ١٠ / ٧٥٨٥ ، التبيان في إعراب القرآن للعكبري ٢ / ١٣٠٨ رسالة حذف الكلمة في القرآن الكريم / ٣١١ .

(٤) قال صاحب اللسان : { المسد : حبل'' من ليف أو خوص أو شَعَر أو وَبَر أو صوف او جلود الإبل .. وقـيل هـو الحبل المضفور المُحكم الفتـل من جميع ذلك .. وقيل : حبل'' مَسَد'' أي ممسود قد مُسِد : أي أُجيد فتله } اللسان مادة (م . س . د) .

الذي كانت تشد به الحطب .. ويعني ما تشد به في النار والصورة على هذا تحدث تفاعلاً مديدًا ، وتواصلاً حميمًا بين المتلقي والنظم القرآني يعمل على لفت ملكات المتلقي ؛ ليعلم أي الدلالتين أولى بالسياق ، وأجدر بالمعنى .

obeikandl.com